الصُفَّة وأثرُها

في

التصوف الإسلامى

تأليف
الدكتورة
نادرة حسن عبد الجواد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله جعل أهل العلم به ، هم أهل المحبة له ، والخشية منه ، وبين أنهم الساعون لرضوانه ، المقربون منه جل شأنه ، الناعمون بنعيمه ، المنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، يوم لقاء الله رب العالمين ، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (١).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الكبير المتعال ، بين أنه اصطفى من خلقه ما اصطفى لأمر يعلمه الله عز وجل، من غير أن يتعلق ذلك بعلة من العلل، أو غرض من الأغراض، رغم مجيء ذلك كله فى حكمة عالية ، ويسعى نحو غاية سامية ؛ لأن صنع الله كله محكم ، قال عز وجل : ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾(٢).

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، اصطفاه ربه للعالمين ، وجعله خاتما للأنبياء والمرسلين ، قال تعالى : ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ (٣).

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ...

فإن جوانب الفكر الإسلامى متعددة ، وما يتعلق بدراسة هذه الجوانب متعدد أيضًا، على أساس مفهوم ثابت يجيء فيه أمران :

الأول : الإسلام : وهو دين الله رب العالمين ، تحمله نصوصه المنزلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المطهرة ، فكلاهما من عند الله جاء. قال تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾ (٤).

الثانى : جهود المفكرين المسلمين ، فى فهم النصوص الدينية الإسلامية ، وهو ما يطلق عليه اسم الفكر الإسلامى ، ومن ثم تتعدد جوانبه من فقهية إلى تفسيرية ، ومن صوفية إلى لغوية وكلامية ، بل وتاريخية أيضًا ، إلى غير ذلك من

---

(١) سورة فاطر الآية (٢٨) .
(٢) سورة النمل الآية (٨٨) .
(٣) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .
(٤) سورة المائدة الآية (١٥) .

الجوانب التى تتكاثر عند العدد ، وكلها تأخذ من نصوص الإسلام، وتعمل على خدمة ذات النقل المنزل من قبل الله عز وجل.

غير أنى قد وضعت فى حسبانى، استخارة الله عز وجل، فأختار لى ما رأيته، ومن ثم قررت البحث عن الصُفَّة التى كانت لها آثار إيجابية ، فى جانب هام من جوانب المحافظة على الدعوة الإسلامية ، بجانب التقعيد للمدارس الروحية فى الإسلام ، وبناء عليه جاء عنوان هذه الدراسة :

(الصُفَّة وأثرها فى التصوف الإسلامى) .

أما لماذا؟ فلأن هذا الموضوع لم ينل حظه من الدراسة المستقلة، بحيث يظهر للقارئ المثقف، والمفكر المسلم على نحو متكامل ، طبقًا لإمكانيات البشر العادية ، وإذا وجدت بعض الكتابات حوله فإنها تكون قليلة، وغير كافية، كما أن الصفة وأهلها قد كانت لهم آثار إيجابية متعددة، وبالتالى يجب أن تظهر تلك الآثار حتى لا يحدث انقطاع بين الفكر الإسلامى، والمفكرين المسلمين، وهو الذى يسعى إليه أعداء الإسلام.

ثم إن دراسة هذا الموضوع تكشف العلاقة بين الماضى والحاضر ، فى التراث الإسلامى ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب الروحية ، التى قد يقع على بعضها اتهام ، بأنها لم تقم على مصادر إسلامية أصيلة .

وفوق ذلك فإن هذا الموضوع يعطى انطباعًا قويًا بمدى الترابط الوثيق بين الصفة والصوفية المسلمين، الذين لهم آثار واضحة قائمة، على المصادر الشرعية.

ومن ثم فقد جعلته في فصلين تحدثت **فى الأول** ، عن تحديد المفاهيم فعرفت بالصفة ، واسمها ، ومكانها وأعداد أهلها ، والوظائف التى شغلوها، أما **فى الثانى** فقد تحدثت عن سماتهم من إخلاص الوجه والقلب ، والانقطاع لله ، مع بيان أنهم وإن كانوا مختلفي البيئات ، إلا أن الإسلام ألف بينهم فصاروا مؤتلفين لا مختلفين ، وأنهم وازنوا بين الآجل والعاجل، فاختاروا تجاوز سلبيات الماضى، ونظروا إلى كل إيجابيات الأجل ، فرابطوا فى سبيل الله، وأقاموا أنفسهم على مقام هداه .

ثم كانت الخاتمة رصدت فيها أبرز ما وقفت عليه من نتائج ، والله أسأل أن يهدينى للصواب ، ويقينى من العثرات، وينهضنى من الكبوات ، وأن يجعله لى فى ميزان الحسنات ، ويخلفه لى فى ذريتى أثناء الحياة وبعد الممات ، ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ (١) ﴿ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ (٢) إنه نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) سورة الرعد الآية (٨) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٢٠) .

الفصل الأول

تحديد المفاهيم

ما من شك فى أن الناس قد ألفوا استعمال مفردات لغوية ، طبقًا لإمكانياتهم المتاحة ، وأن هذه الألفاظ قد تجئ فى بعض الأحيان عامة، تمثل الحقيقة اللغوية[١]، لأن العلماء يقولون : أن الحقيقة اللغوية هى استعمال اللفظ فيما وضع له حقيقة عند اللغويين ، فإذا نقل عنهم إلى غيرهم فقد خرج إلى صورة من صور المجاز [٢].

ومن المؤكد أنه ما من كلمة إلا ولها استعمالات يمكن التعامل بها من خلالها، كلفظ الصفة مثلاً ، فإنه عند إطلاقه يرد على معنى الصفة ، وعلى معنى الاسم ، وعلى غيرهما ، وبناء عليه تكون الكلمة بحاجة إلى تحديد المعنى المراد منها، بحيث تستخدم فيه دون غيره .

وفى تقديرى أن تحديد المفاهيم بالنسبة للصُفّة وأثرها فى التصوف الإسلامى، أمرٌ من الأهمية بمكان ، لأنه يضع النقاط على الحروف من ناحية ، ويحدد الاتجاهات من ناحية أخرى ، وعلى أساسه فإما أن يكون التصوف قائما على أصول مشروعة ، أو غير مشروعة ، وسيكون ذلك من خلال ما يلي :

أولاً : التعريف بالصفة فى اللغة والاصطلاح .

ثانياً : اسمها ومكانها .

ثالثاً : عدد أهل الصفة وأعمالهم .

---

(١) لأن اللغة هى الحقيقة الثابتة بالنسبة للألفاظ ، ولذا يقال عند التعريفات هذا فى الحقيقة ، وذاك فى الاصطلاح أو المجاز .

(٢) يتنوع المجاز : إلى (١) المرسل (٢) اللغوى (٣) العقلى (٤) العرفى (٥) الشرعى (٦) العادى . راجع للشيخ أحمد بن عطية البنهاوى ، البيان فى علوم البيان ص ٧ المطبعة المليجية ١٣٠٧ هـ بعناية الشيخ فرج أمين الكردى .

أولاً : التعريف بالصفة :

وردت مادة الكلمة – ص ف ف – فى القرآن الكريم على العديد من الجهات، باعتبار المصدر والتسمية والجمع ، وكذلك الفعل والوصف ، حوالى (٣٤) مرة [١]. وكذلك وردت مادة الكلمة فى لغة العرب على أنحاء شتى .

ولما كانت الألفاظ فى أية لغة ، هى الحاملة للمعانى المرادة ، فلا بد من التعرف على جانبٍ من تلك المعانى ، التى تحملها هذه اللفظة سواء من ناحية اللغة، و اللسان العربى ، أم من ناحية اصطلاح أصحابها .

أ – فى اللغة :

جاءت معانى الكلمة ، فى كثير من الصور ، أبرزها ما يلى :

(١) **التسوية والتنظيم:** ومنه كلام العرب: صفت المرأة شعرها بمعنى سوته ونظمته[٢]. وأهل الصُفَّة هم الذين ساووا أنفسهم، ونظموا حياتهم ليكونوا تحت أمر ربهم.

(٢) **بسط الأطراف وتسكينها :**

تقول العرب (صفت) الطير أجنحتها، بمعنى بسطتها ، ولم تحركها فى طيرانها فهى صافَّةٌ [٣] ، أو طير صَوافَّ [٤]. وأهل الصفة هم الذين خفضوا أنفسهم ، لتكون مأمورة بالله ، وسكنوها بعيدًا عن أطماع الهوى .

(٣) **الاستقامة على الوجه الأمثل :**

ذكرت مصادر العربية أن (الصَّفَّ) هو السطر المستقيم ، أو المستوى من كل شئ، فيقال : صفَّ القوم وصففهم وتصافوا واصطفوا [٥].

ومعنى هذا أن أهل الصُفَّة هم المستقيمون مع الكتاب والسنة ، لا يعرجون على شئ غيرهما أبدًا ، مهما امتدت بهم الإقامة، أو ضغطت عليهم ألوان الابتلاءات.

(٤) **ما خلص لغيره :** قالت مصادر العربية : " الصفىّ والصفية " ما يصطفيه الإمام لنفسه، فصار له وحده أى يختاره والجمع صفايا [٦]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ [٧].

---

(١) الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – ص ٥٠٣ (دار الحديث ، القاهرة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م) .

(٢) مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،المعجم الوجيز ، ص ٣٦٦ . طبعة وزارة التربية والتعليم

(٣) المعجم الوجيز ، ص ٣٦٦ .

(٤) العلامة ابن منظور لسان العرب ج ٤ ، ص ٢٤٦٢ ط دار المعارف .

(٥) العلامة الزمخشرى، أساس البلاغة، ج ٢ باب الصاد ص ١٩ ط (٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٦) المقرى – المصباح المنير ج١ ، ص ٤٦٨(المطبعة الأميرية) .

(٧) سورة ص الآية (٤٧) .

والعلاقة بين هذا المعنى . والصُـفَّه، هـي أن أهلهـا اختـاروا الله وحـده ، واصطفوه ليكون هو نجيهم والسمير ، و أنيسهم والمعول عليه وحده.

(٥) **التصفية من الشوائب** : ذكر صاحب اللسان قوله : (صـفـ) الجـاذر اللحم. بمعنى نظفه من الشوائب ، وأبعده عن كل ما يشينه [١]. وأهل الصُفَّة هـم الذين صفاهم صحيح الاعتقاد عن فساد العمل والسلوك المعيب ، فصاروا الأقرب إلى الله ، والأدنى منه.

(٦) **النقاء فى الناتج مع الكثرة** :

قالت العرب : ناقة صفوف ، تصف أقداحا من لبنهـا لكثرتـه [٢] ومعنـاه أن ناتجها قد صفى ، فصار أجود الأنواع وأعلاها .

والعلاقة بين هذا المعنى ، وأهل الصفة ، أنهم الذين صدرت عنهم أعمال راقية ، وسلوكيات متميزة ، وكيف لا وهم الصف الأول فى الدعاء إلى الله ، والـدفاع عن دين الله ، والحرص على استظهار ما أنزل الله .

(٧) **اللين المطلوب: ومنه قولهم** : (الصفصاف والعصفور) ويعنون بهـا النبات اللين ذات الغصون الفرعاء، والعصفور ذو الزقزقة المحببه إلى النفس [٣].

والعلاقة بين أهل الصُفَّة وهذا المعنى هو أن أهل الصُفَّة كانوا أشداء مع أنفسهم يأخذونها بالحزم والعزم والقوة ، حتى إن الواحد منهم ربما مضت عليه أيام وهو صائم، يعمل فى مال الصدقة من غير أن يدخل إلى جوفه أدنى شئ من طعـام، ومع هذا فهو أمام نداء الله لين إلى أبعد مدى ، حتى إن الواحد منهم كان إذا سمع مؤذن الجهاد خرج من مقعده أو من مقامه ، متمنيًا الشهادة ، داعيا الله أن يرزقه إياها [٤].

(٨) **النحافة مع الدقة والرقة: قال الجوهرى:** الصفيف ما صُف من اللحـم على الجمر، رقيقًا حتى يشوى فى دقة [٥]. وتقول العرب: أيضا فلان صفيف لشدة نحافته ، حتى صار كالقديد الذى فصل منه العظم ، وسلتْ الشمسُ منه دُهنه [٦].

والعلاقة بين هذا المعنى وأهل الصفة واضحة ، فى أنهم الذين صفتهم تعـاليم

---

(١) العلامة ابن منظور ، لسان العرب ج ٤ ، ٢٤٦٢ .

(٢) العلامة الفيروز آبادى ، القاموس المحيط ج (٣) ص ١٦٧ .

(٣) راجع العلامة ابن منظور ، لسان العرب ج (٤) ص ٢٤٦٣ .

(٤) وذكر العلامة إسماعيل النبهانى أن الكثيرين من الصحابة الذين كانوا يقيمون بالصفه أثرى عنهم أن الواحد منهم كان يدعوُ الله أن يرزقه الشهادة وليس على جسده إلا ثـوب واحـد ، فيرزقها ويكون ثوبه هو كفنه .
راجع جامع كرامات الأولياء ج (١) ص ١٤٨ وما بعدها (المطبعة العصرية بدون تحقيق ١٣٤٥هـ) وهناك طبعات أخرى رجعت إليها ولم أنقل عنها .

(٥) العلامة : ابن منظور ، لسان العرب ج (٤) ص ٢٤٦٢ .

(٦) راجع العلامة الزمخشرى . أساس البلاغة ج (٢) ص ١٩ .

الله من الانطلاق نحو رغبات النفس وشهوات البدن ، فصاروا بالنسبة لها كقطع الحديد لا يمكنها أن تنكسر أو تلين.

(٩) الملاسة والنعومة :

قالت العرب : امرأة (صَفُوفٌ) ، وقاع (صفف) ومعناه أملس لا يمسك شيئًا [١] ومثله أيضًا (الصفصف) الذى يلبس تحت الدرع والسرج ، فيمنع التصاقها بجسم الحيوان فلا تؤثر فيه ولا يتأثر بها [٢]. والعلاقة بين أهل الصفة ، وهذا المعنى ، قائمة فى أنهم لا يمسكون فى نفوسهم من أطماع الدنيا شيئًا ، لقد تركوا أموالهم وأهليهم ، وتخلصوا من ذلك كله فلم ينشغلوا به ، قل أو كثر ، حتى كان الواحد منهم يسافر مهاجرًا إلى الله ورسوله ، تاركا للقرشيين كل ما يملك متى كان قرشيا أو وقع فيهم ، أوكان من غيرهم ، ولا يخلى بينه وبين الإسلام إلا بذلك [٣]. فكان يسرع إلى تركه ، حتى يخلص نفسه وجسده لله وحده .

بجانب هذه المعاني وجدت أخرى كالانقطاع والاختلاف والائتلاف مما يؤكد وجود الكلمة في لغة العرب ويصحح استعمالاتها لدى المسلمون الأوائل .

ب : فى الاصطلاح :

بعد ما تعرفنا على معانى الصُفَّة من الناحية اللغوية ومشتقاتها التى وردت على لسان العرب ، وذكرتها المصادر المختلفة ، جاء دور تعريفها فى الاصطلاح [٤].

ومن المؤكد أن " لأرباب كلّ صناعة ألفاظًا يتداولونها بينهم فى أبحاثهم وقد وضعوها بإزاء مسميات يحتاجون إليها فى محاوراتهم ، فلا يقف غيرهم على موضوعها إلا بتوقيف منهم " [٥].

ومن هنا تظهر أهمية التعامل بالاصطلاحات العامة – المشتركة – والاصطلاحات الخاصة فى كل فرع من فروع المعرفة ، والتفرقة بينهما.

بيد أنى هنا سأعرض للصُفَّة فى الاصطلاح الخاص [٦] لأنه المعتبر حتى وإن ورد على ألسنة غير الصوفية ، أو جاء من تعريفات أصحاب المعاجم ، لأن الباحث هدفه الوصول إلى الحقيقة لا يبالى من أين جاءت ، وفى الحديث الشريف:

---

(١) راجع الفيروز آبادى ، القاموس المحيط د (٣) ص ١٦٧ .

(٢) راجع العلامة :ابن فارس :مقاييس اللغة ج (٣) ص ٢٩٢ .

(٣) كالحال مع سيدنا صهيب بن سنان سابق الروم على ما جاء به الحديث الشريف.

(٤) عرف الاصطلاح بأنه: عبارةعن اتفاق قوم معينين على تسمية الشئ باسم ما ينقل عن موضعه الأول . راجع للسيد الشريف الجرجانى ، التعريفات، ص ٢٢ (مكتبة البابى الحلبى ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م، والأستاذ حكمت الله ناصر- طرائق التفكير فى الماضى والحاضر ص ١١٢.

(٥)الصاحب محيى الدين يوسف بن عبد الرحمن ابن الجوزى الحنبلى (ت ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح فى الجدل والمناظرة ، تحقيق: محمود ابن محمد السيد الدغيم ، ص ١٠٤ (مكتبة مدبولى ج (١) ، (١٤١٥هـ - ١٣٥٧م).

(٦) اقصد به تعريفات الصوفية أنفسهم لأن هذا اللفظ من مصطلحاتهم ومادتهم المشتركة بينهم.

" الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها " [١].

وسيكون ذلك طبقًا لما يلى :

(١) **يقرر العلامة الكُلاباذى** : أن الصفة كانت مكانا انتسب إليه جماعة عبر ظاهر أحوالهم عنهم ، وصار سمة لهم ، حيث تركوا الدنيا وخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان ، وساحوا فى البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، يرجون رحمة رب العباد [٢] فتحقق فيهم الزهد بمعانيه السامية. والتى من أهمها " عدم الالتفات إلى الدنيا بحذافيرها، وجاهها ، وشهواتها، وزينتها ، وزخارفها . رغبة فى الآخرة وأنعمها الباقية "[٣].

والصوفيه لما كانوا يمارسون ذلك أيضًا حتى أعروا أجسادهم من فاخر الثياب ، ولم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر العورة ، وسد الجوع ، فقد صاروا أقرب من الصُفَّه وأهلها . وقد عبر عن ذلك الحسن البصرى [٤] بقوله : " رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة ، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا " [٥].

(٢) **ذهب العلامة السهروردى** : إلى أن الصُفَّة كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ [٦] ويستشهد على ما ذهب إليه بقوله تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾ [٧].

ومراده من ذلك أن الذين كانوا يسكنون هذا المكان ، يشاكل حال بعضهم حال

---

(١) الإمام الترمذى ، سنن الترمذى ج ٥ ص ٥١ حديث ٢٦٨٧ ، الإمام ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٩٥ باب الحكمة حديث ٤١٦٩ .

(٢) راجع العلامة الكلاباذى ت (٣٨٠هـ)، التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦ – ضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه / أحمد شمس الدين (دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ط (١) ١٤١٢هـ – ١٩٩٣م) .

(٣) العلامة أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازى ، منارات السائرين ومقامات الطائرين، ص ٣٦٠، تحقيق سعيد عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

(٤) كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز لما سأله أن يعظه : أما بعد فإن رأس مامُصْلِحُك ومُصْلَحُ به على يدك : الزهد فى الدنيا ... كما فرق بين الوسواس والهاجس أفضل تفرقة عرفها التحليل النفسى الحديث . انظر عبد المنعم الحنفى ، الموسوعة الصوفية ، ص ٥٦ : ٦٠ (دار الرشاد ط (١) ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م) .

(٥) الإمام الغزالى ، إحياء علوم الدين ، ج (٣) ص ٢٠٢ تقديم وتحقيق د / بدوى طبانة (طبعة البابى الحلبى).

(٦) راجع العلامة السهروردى ، عوارف المعارف ص ١٤(مكتبة القاهرة ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م).

(٧) سورة البقرة آية (٢٧٣) . ويقال : ﴿ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقفوا على حكم الله وأحْصَروا نفوسهم على طاعته وقلوبَهم على معرفته وأروحهَم على محبته ، وأسرارَهم على رؤيته – راجع للإمام القشيرى – لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٢١٠ – تحقيق د / إبراهيم بسيونى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط (٣) ٢٠٠٠م) .

أولئك الذين اشتركوا فى أوصاف بعنيها ، كما كانوا مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفى الله ، ومن ثم فالصوفية كأهل الصفة فى هذا الجانب [١]. وهذا التعريف يركز على الوظيفة التى كانت للصُفَّة ، وليست على ذات الصُفَّة.

(٣) **ذهب العلامة ابن عجيبة** : إلى أن الصُفَّة كانت بالمسجد النبوى لأهل الصفة حتى ينزلوا فيه، أو يقيموا به، وتفرض لهم فيه الأرزاق، وتجرى عليهم الأعمال، ومن ثم فالصوفى تابع لهم فيما أثبت الله من الوصف[٢]. وهذا التعريف يحدد المكان على وجه عام، والتعريف بالمكان قد يكون مقبولا، إذا لم يقع فيه تنازع.

(٤) **يذكر العلامة الهجويرى** : أن أهل الصفة قد بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة[٣] فيروى عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ وقف على أهل الصفه يوما فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم ، ورقة قوتهم ، فقال : " أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه راضيًا بما هو فيه ، فإنه من رفقائى يوم القيامة [٤].

وهذا ينطبق على كل من بقى من أمة محمد ﷺ على نعت هؤلاء ؛ فيدخل الجنة، فذلك وصف لكل من مارس الذى مارسوه ، وتمسك بالكتاب والسنة، راضيا بما قسم الله له من الفضل , ساعيا إلى ما فيه الخير، الذى يُرضى مولاه، فهو مثل أهل الصفة فى البشرى . وقد عبر عن حال هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ**﴾[٥].

(٥) **ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية** : " إلى أن الصُفَّة إنما كانت تقام لضيوف الإسلام الذين لم يكن لديهم أهل ولا مكان يأوون إليه فكان من لم يتيسر له مكان يأوى إليه فإنه يلجأ إلى تلك الصفة التى فى المسجد" [٦].

وهذا القول إنما يدل على كون ابن تيمية من الحريصين فى الحديث عن التصوف والصوفية، وارتباط هؤلاء بالصفة ، وبناء عليه فقد أمكن القول باعتباره أحد الذين استعذبوا الحديث عن الصوفيه، وكانت له فى ذلك مهام ومجهودات كبيرة .

(٦) **وقريب من هذا المعنى السابق يشير العلامة المباركفورى** إلى أن : "

---

(١) العلامة السهروردى ، عوارف العوارف ص ١٤٦ .

(٢) العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ، إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص ٧ ، ٨ (مكتبة ظهران بالقاهرة) .

(٣) العلامة الهجويرى . كشف المحجوب ص ١٠١ ت محمود أحمد ماضى أبو العزائم – مراجعة إسماعيل ماضى أبو العزائم – تقديم ابراهيم الدسوقى شتا ، دار التراث العربى القاهرة ، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م) .

(٤) العلامة أبو القاسم الطبرانى – المعجم الكبير ج ٢٢ ص ٣٢٠ الحديث (٨٠٧) – والعلامة أبو بكر الهيثمى مجمع الزوائد ج ٧ ص ٢٠٧ .

(٥) سورة الحشر آية (١٠) .

(٦) شيخ الإسلام بن تيمية – مجموع الفتاوى ، مجلد ١١ التصوف ص ٣٨ .

الصُفَّة كانت موضعا بالمسجد يتم فيها إيواء عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين، الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا بنون " [١] فهو يرى أن مسجد رسول الله ﷺ لم يكن مجرد مكان لأداء الصلاة ، وإنما كان جامعًا وجامعة ومكان، عبادة وعقيدة، وصورة من صور التلاقى فى رحاب الله ، والحث على الطاعة، بدليل أن المتعلقين بالمساجد بشرهم الله ببشارات كثيرة منها قوله ﷺ : " بشر الماشئين إلى المساجد فى الظلام بالنور التام يوم القيامة " [٢]. وفى الحديث الشريف أيضًا ما روى أن الرسول ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .... وذكر منهم رجل قلبه معلق بالمساجد " [٣].

وموضع الاستدلال بالحديث هنا هو المسجد والتعلق به وأهل الصُفَّة كان تعلقهم بالمسجد لا كمكان فحسب وإنما لأنه بيت الرحمن . وفى الحديث القدسى : " إن بيوتى فى الأرض المساجد وإنما زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتى ؛ فحق على المزور أن يكرم زائره " [٤].

أخلص مما سبق إلى أن الصفة إنما هي مكان كان بمسجد رسول الله ﷺ في حال حياته بين الناس، وكان يأوى إليه فقراء المسلمين الذين لا مال لهم، ولا أقارب، وهم في ذات الوقت في الصف الأول من الجهاد، وكثرة الاستعداد حتى أنهم كانوا من حملة كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ ومثلوا دور العمل الشريف في الإسلام وأقاموا أنفسهم تحت أمر الله لا يخرجون عنه.

---

(١) العلامة : صفى الرحمن المباركفورى . الرحيق المختوم ص ٢٠٦ (دار الوفاء – المنصورة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م) .

(٢) الإمام أبو داود – سنن أبو داود ج ١ ص ١٥١ رقم ٥٦١ .

(٣) الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخارى الجعفى (ت ٢٥٦) – صحيح البخارى ج ١ ص ٢٣٤. تحقيق د / مصطفى ديب البغا (دار ابن كثير – اليمامة بيروت ط ٣ – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).

(٤) العلامة الشيخ : نصر الدين محمد ابوالبركات الدمياطى – الاتحافات السنية بشرح الأحاديث القدسية ج (١) ص ١٨٧ (مطبعة فؤاد ١٣٢٧هـ) – وهو غير الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية للشيخ محمود النووى تحقيق وشرح الشيخ محمد المدنى ط المدنى .

ثانياً : اسمها ومكانها .

سلف القول بأن مادة الكلمة (ص ف ف) لها وجود فى لغة العرب ، كما لها علاقة بفعل أهل الصفة ، فى نفس الوقت فقد بان أن هذه الصُفَّة كان لها وجود فعلى حقيقى واقعى في زمن رسول الله ﷺ ، وهنا يأتى سؤال : لماذا سميت صُفَّة ؟ وأين مكانها ؟ ذلك ما سوف أعرض له من ناحية الاسم والمكان فيما يلى إن شاء الله تعالى :

١ - من ناحية التسمية :

بالنظر إلى الصُفَّه من ناحية التسمية نجدها على وجوه كثيرة باعتبارات مختلفة منها :

الأول : باعتبار اللغة :

وهو ما ذكرته المصادر العربية من أن مادة الكلمة، يشتق منها الصف الأول مع الانتظام والدقة والاستقامة ، بجانب الدفاع عن أنفسهم من هجمات الآخرين، حتى لو كان الآخرون أحد هواجس النفس الإنسانية ونزعاتها.

ومن ثم فإن تسمية الصُفَّة بذلك إنما تحمل دلالة واضحة على فعل أصحابها، وتمثل صورة دقيقة لما في وجداناتهم بجانب السلوكيات العملية، فلم يتمسكوا بشئ من الدنيا وإن عظم، وفى ذلك قال صاحب الإحياء: " إنك لن تصبح فى شئ من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة ، وغذاء يوم، فلا تهلك فى أكلة، وصم عن الدنيا ، وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى، وربحها النار"[١]. وهم لم يرضوا بالجنة بديلاً ولا بالصحبة سميرًا.

الثانى : باعتبار ما يُؤدى فيه :

ومعناه أن هذه التسمية بالصُفَّة ، إنما تكون باعتبار تسمية الشئ بما يؤدى فيه ، أو يؤول إليه [٢]. وهم " قد صفوا بواطنهم من شوائب الكدر ، واستوى عندهم الذهب والمدر ، والمدح والذم والشدائد والنعم ، بل يعدون نعمة الدنيا منعا وبلاء ، والشدة عطاء ورخاء ، أعرضوا في بدايتهم عما سوى الله ؛ فحصلوا فى نهايتهم من فضل الله ، ما لا يعلمه إلا الله "[٣].

وهذه التسمية مشهورة ولا ممانعة فى ذلك ، بل إن المسجد ما سمى مسجدًا إلا لما يقع فيه غالبًا ، من السجود لله عز وجل ، مع أن المسجد يتم فيه الركوع

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى ، إحياء علوم الدين ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٢ ، تحقيق د / بدوى طبانة .

(٢) راجع الشيخ طلعت محمد الثيان ، الصفة وأهلها ص ٢٧ (الدار القومية) .

(٣) العلامة أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى ، نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية . الملقب (كفاية المعتقد ونكاية المنتقد) ص ١٧٨ تحقيق وتصحيح الأستاذ / ابراهيم عطوه عوض (البابى الحلبى ط (١) ١٣٨١هـ - ١٩٦١م) .

والسجود وانتظار الصلاة ، وغير ذلك من الأمور المشروعة.

الثالث : باعتبار المكان :

ومعناه أن هؤلاء المقيمين فى ذات المكان، من أصحاب الصف الأول بالنسبة للعقيدة الصحيحة ،والعبادة الحقة، ومجاهدة النفس، ومدافعة الأعداء. فكان ذلك هو الأساس الأول الذى مكن من قيام دولة المدينة وذلك لأن الدين الجديد بما جاء فيه وحد بين المؤمنين، وجعلهم صفا واحدا ، كالبنيان المرصوص، وجعل فكرهم خالصًا لله وحده، وعدم الإشراك به " [١].

الرابع : باعتبار العلاقات المتبادلة:

ومعناه أن هذا المكان بذات الأشخاص ، والأحوال التى تتم فيه قد حدث بين الجميع اختلاط وتلاحم تام ، فصاروا جميعا كأنهم شئ واحد ، اطلق عليه أهل الصُفَّة[٢]. فلما اعتصموا بدين الله ، واجتمعوا عليه رزقهم الله الألفة والمحبة ، حتى كانوا أصفياءه ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ [٣] وقد أثمر لهم ذلك صالح الأعمال، وسنى الأحوال ، وتهيأ لهم صفاء الفهوم ، لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان ، وبعد العرفان عرفان ، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة : " أصبحت مؤمنا حقا " [٤]. ففازوا برضوان الله ، وصارت لهم نعوت ظاهرة ، يغبطهم بمنزلتهم الشهداء والنبيون ، فقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إن من عباد الله لأناس، ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، بمكانهم من الله عز وجل " فقال رجل: من هم وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم . قال : " قوم يتحابون بروح الله عز وجل ، من غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها بينهم . والله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس [٥] ثم قرأ : ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [٦].

---

(١) الدكتور / محمد ممدوح العربى ، دولة الرسول ﷺ فى المدينة ، ص ١٦١ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) .

(٢) وهذا الوجه له ملحظ مقبول نظرًا لسمات هؤلاء الأفراد وطبيعة ذات المكان والأعمال التى كانت تؤدى فيه .

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٣) .

(٤) العلامة أبو محمد اليافعى ، نشر المحاسن الغالية ص ٤٠٠ تحقيق أ . إبراهيم عطوة عوض ط (١) .

(٥) الحافظ أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج (١) ص ٥ (مكتبة الرفاعى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .

(٦) سورة يونس الآية ٦٢ .

الخامس : باعتبار الحال القائمة :

ومعناه أن هؤلاء الذين أقاموا فى ذات المكان كأنما وضعوا هم والمكان فى صف واحد ، حيث يكون المكان مستعدًا لاستقبالهم وأمثالهم من المهاجرين لأنهم " المورثون جلاسهم كامل الذكر ، والمقيدون خلانهم بشامل البر " [١]. كما يكونون فى الصف الأول من الاستعداد لممارسة كافة الأعمال التى تناط بهم [٢]. وكان الواحد منهم " لا يرى فضيلة فى صورة فقر ، ولا فى صورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق عز وجل فيه ويدخله عليه " [٣]. ولذا صاروا كالأنجم التى تضئ جنبات الليل المظلم .

السادس : باعتبار الغاية :

حيث كانت الصُفَّة مكانا مظللاً فى مسجد المدينة يأوى إليه الفقراء المهاجرون، ويرعاهم رسول الله حتى كانوا " جماعة الله التى تسهر على مبادئ الإسلام ونصرة المظلوم ، وحماية الجار ، يكلؤها الله بعين رعايته فهى تعيش لله وفى الله وبالله ويسوس أمورها رسول الله ﷺ " [٤] ، ثم يقوم المسئول عنهم، والمعين من قبل الرسول بإعدادهم لكسب أقواتهم ، والمساهمة فى الإنفاق على غيرهم [٥]. فاستحقوا أن يوصفوا بجند الله حقًا ، " جند يتميزون بتكوين خاص يجمع بين القوة المادية ، والقوة الروحية فى وقت واحد ، وكأن الغاية منهم تحققت فعلاً، بأن أصبح لدى المسلمين إناس متكاملي القوى، مادة وروحًا فى كيان واحد " [٦].

السابع : باعتبار العَلَمِية :

ومعناه أن الصفة صارت علما على مكان محدد فى مسجد المدينة المنورة، بأمر رسول الله ﷺ – يتردد عليه مجموعة من أهل الإسلام، لهم ظروف خاصة، فلم يعد يذكر مسجد المدينة المنورة – نورها الله برسوله – إلا وتذكر معه الصُفَّة وأهلها، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يكن يستخدم المسجد مكانا للعبادة فقط ، بل كان يستخدمه أيضًا كمركز للحياة السياسية والاجتماعية، والعسكرية، كما كان يستقبل فى المسجد أيضًا السفراء والوفود من الدول – فكان المسجد بمثابة مبنى الحكومة النبوية، بالإضافة إلى وظيفته الدينية الأساسية [٧].

---

(١) الحافظ أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج (١) ص ٦ .

(٢) وسوف أعرض لذلك آنفا الحديث عن أعمال أهل الصفة من هذا البحث .

(٣) العلامة أبو محمد أسعد اليافعى ، نشر المحاسن الغالية ص ٤٠٤ .

(٤) الأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، محمد رسول الله والذين معه ، ج (١١) (الهجرة) ص ١٥٤ (دار مصر للدلباعة ١٩٧٨م) .

(٥) ومن ثم فلم يكن أهل الصُفَّة من المتعطلين ، وإنما كانوا من العاملين المهرة الذين يتقنون كافة الأعمال التى يوكل إليهم القيام بها .

(٦) الأستاذ / توفيق محمد سبع ، المجاهدون فى الله ، ص ١٠ ، ١١ (مطبعة الأزهر ١٣٩٠ هـ – ١٩٧١م) .

(٧) الدكتور / محمد ممدوح العربى ، دولة الرسول فى المدينة ، ص ١٨٦ .

ولنا أن نتصور حال هؤلاء النفر ، الملازمين للرسول ﷺ فى كل هذه الشئون فضلا عن شئون الوحى ، وكِتَابتِهِ ، وعمال الأموال وغير ذلك من كافة الشئون، ونتصور كذلك علمهم الذى استقوه منه ، فى قوله وعمله ﷺ، لندرك كيف صارت الصُفَّة واسمها علما على هذا المكان بذاته دون سواه.

وفى تقديرى أن هذه الوجوه عند انفرادها تكون مراده كلها ، وعند اجتماعها مع بعضها ، وتألفها فيما بينها ، إنما تقدم صورة رائعة للتسمية بالصُفَّة ، لما هو معروف من أن اللفظ إذا أطلق انصرف إلى أكمل معانيه المرادة ، ما لم تكن هناك قرينة تحدد واحدا منها [١]. وما دامت القرينة قد ظهرت فإن التحديد يكون مطلوبا .

ربما يتسائل المرء قائلاً : هل رسول الله هو الذى أطلق هذه التسمية، أم أنها أطلقت عليهم فيما بعد ذلك ، أم وقعت لهم من غيرهم ؟

والجواب :

أن الرسول ﷺ لو كان هو الذى أطلق تلك التسمية عليهم لكانت تسمية توقيفية ، ومن ثم يرد بها النقل الثابت عن رسول الله ﷺ ، غير أن ذلك النقل لم يقع ، وبناء عليه فلا تكون تلك التسمية توقيفية ، من حيث الظاهر، ولكنها تسمية تدخل فى نطاق السنة التقريرية ، على أساس أن فعل الرسول ﷺ سنة فعلية ، وما يقول الرسول ﷺ سنة قولية ، أما ما يتم حال حياته وبين يديه ، ولا ينهى عنه ، فإنه يكون من قبيل السنة التقريرية [٢]. إذ أن السنة التقريرية تنال حجية السنة القولية والعملية، وإن كانت تلى كلاً منهما فى الترتيب ، بدليل حديث ابن مسعود ﷺ : " كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والوحى ينزل بين أظهرنا ولم ينهنا " [٣].

وفى نفس الوقت فإن حديث طعام الضب الذى قدم بين يدى رسول الله وصحابته الأجلاء فمدوا أيديهم إليه بينما رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك ، فقالوا أهو حرام يا رسول الله فننتهى عنه ، فقال ﷺ إنه ليس بحرام ، ولكنه ليس بطعام قومى [٤]. فذلك الفعل من الصحابة بمرأى رسول الله ﷺ يعتبر سنة تقريرية . وما دام قد تم الإطلاق على ذلك المكان حال حياته ﷺ ولم يقف عليه الصلاة والسلام من هذا الإطلاق موقفا يدل على الرفض، فقد بان أن هذه التسمية وقعت بموافقة

---

(١) الشيخ محمد بن على حسن العجلان – لقطة الطمآن ، ص ٤٨ (طبعة الدار المصرية القديمة ١٣٣١هـ) .

(٢) لأن السنة عرفت بأنها ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أوفعل أو تقرير أو صفة حقيقية ، أو حكما . راجع الإمام ابن حزم ، الإحكام ج (١) ص ٢٨ (طبعة دار التراث) . وكذلك للدكتور / محمد حسن طلبه أصول الفقه ص ٧١ (طبعة الدار الجديدة١٩٨٧م) .

(٣) الدكتور أمين مصطفى التازى ، علوم الحديث ، ج (١) ص ١٣٨ (طبعة الدار الفنية ١٩٧١، القاهرة) .

(٤) الشيخ محمود عبد العظيم عبد الرزاق – من أنوار السنة المطهرة ، ص ٥٣ (طبعة الدار القومية بالقاهرة) .

رسول الله ﷺ بدليل ورود الكثير من الدلائل الشرعية فى هذا الخصوص ومن ذلك:

ما روى عن أبى هريرة قال : مر بى رسول الله ﷺ فقال : "أبا هريرة ؟" فقلت لبيك يا رسول الله . قال : " الحق أهل الصُفَّة فادعهم " قال : وأهل الصُفَّة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها [١].

وما ذكر عن طلحة بن عمرو قال : كان الرجل إذا قدم على النبى ﷺ إن كان له عريف [٢] بالمدينة نزل عليه ، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة . قال: فرافقت رجلا فكان يجرى علينا من رسول الله كل يوم مد من تمر بين رجلين ، فسلم ذات يوم من الصلاة فناداه رجل منا فقال يا رسول الله أحرق التمر بطوننا ، قال فمال النبى إلى منبره . فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ما لقى من قومه . فقال : " لقد مكثت أنا وصاحبى بضعة عشر يومًا ما لنا طعام إلا البَرير [٣] ، فقدمنا على إخواننا من الأنصار . وعظم طعامهم التمر فواسونا فيه ، والله لو أجد الخبز واللحم لأطعمتكموه ، ولكن لعلكم تدركون زمنا ، أو من أدركه منكم، تلبسون فيه مثل أستار الكعبة ، ويغدى عليكم ويراح بالجفان " [٤].

ولما كان الثابت وجود الصُفَّة وأهلها، حال حياة الرسول ﷺ من أول ما وقعت الهجرة، فقد دل الأمر على أن هذا الإطلاق قد تم عليهم منذ أول حالهم ، وتكون تلك التسمية، قد أطلقت حال حياة رسول الله ﷺ بينهم فتكون تسمية متوافقة مع أحداثها وأماكنها.

٢ - من ناحية المكان :

من المؤكد أن الصُفَّة كانت مكانا يأوى إليه فقراء المسلمين ، وأضياف، الإسلام وأحيانا الوفود المتدافعة للقاء رسول الله ﷺ ، ولكن أين وجد هذا المكان؟ وهل ظهر بمكة أم كان بالمدينة المنورة؟ وما هى الأدلة؟

ذلك كله دفع بى إلى محاولة سبر الأغوار العلمية ، ومتابعة الآراء الفكرية والعمل على استخلاص النتائج ، فى صورة تغلب عليها الموضوعية، والحياد دون

---

(١) العلامة أبو نعيم - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج (١) ص ٣٣٨، ٣٣٩ .

(٢) يقصد به أحد معارفه أو ذات القربة أين كان نوعها ، وليس معناه المعلم كما هو اللفظ المفهوم فى مكاتب تحفيظ القرآن قديما، أو ما يطلقه البعض بين أفراد القوات المسلحة حديثا.

(٣) البَرير : هو ثمر نبات الأرك الذى يؤخذ من أعواده اللبنة السواك وذكر رسول الله ﷺ فى فوائد السواك ثمانى عشرة فائدة . ولمزيد من التفاصيل حول فوائد السواك راجع فوائد الإقناع - للعلامة الخطيب الشربينى ج (١) كتاب الطهار ص ٦٨ وما بعدها .

(٤) العلامة بن حبان - صحيح بن حبان ج (١٥) ص ٧٧ (ذكر الأخبار عن وصف البعض الآخر من سعة الدنيا على المسلمين) رقم ١٦٨٤ ، وذكره العلامة أبو نعيم فى الحلية ج (١) ص ٣٧٣ ، ١١١٧٤ ن وكذلك السهروردى فى عوارف المعارف ص ١٠٣.

التعصب لرأى ، أو الميل إلى هوى .

ومن ثم نقول ظهر فى تلك المسألة فريقان : أحدهما يرى أن الصُفَّة كانت بمكة وذكر أدلته ، والآخر يراها بالمدينة ، و يورد أدلته ، وسوف أعرض للفريقين كلاً من وجهة نظره ، ثم أرجح ما تغلبت أدلته عندي.

الفريق الأول : القائلون بأنها كانت فى مكة :

يذهب هؤلاء إلى أن الصُفَّة فى ظهورها الأول، تمثلها دار الأرقم بن أبى الأرقم[١] حيث كانت المأوى لهؤلاء النفر ، **ويستدلون على رأيهم هذا بعدة أمور منها:**

أ – أن رسول الله ﷺ كان يلتقى بصحابته هناك ، وأنهم كانوا يتكاثرون أحيانا، كما كانوا يقلون فى بعض الأوقات ، بحيث لا يجاوزن فى كل لقاء أصابع اليد معًا ، وقد ظلوا على هذا اللقاء سرًا قرابة الثلاث سنوات حتى نزل عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ [٢].

ب – أن المشركين لم يكونوا يجهلون دار الأرقم، ولكن كانوا يطلقون عليها اسم الصُفَّة على سبيل التنكير لها ، والتقليل من شأن أصحابها [٣].

ج – أن ابن أم مكتوم [٤] كان فى مكة ، وكان من أهل الصُفَّة ، فلما غاب رسول الله ﷺ بحث عنه غير أن رسول الله ﷺ كان مشغولا بمناقشة المشركين فلم يهتم به فوجهه الله فى قوله تعالى : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى** ﴾[٥].

د – وجود جملة من العبيد الذين حرروا من الرق ، ولم يكن لهم مأوى بمكة ، فأين كان موضع إقامتهم كـ (بلال الحبشى) وغيره ممن أعتقهم الصديق أو غيره .

ومن ثم إنتهى أصحاب ذلك الرأى ، إلى القول بأن الصُفَّة كانت فى مكة أولاً ،

---

(١) الأرقم بن أبى الأرقم : من السابقين الأوائل فى الإسلام ، قيل أسلم بعد عشرة ، وقيل سابع سبعة ، كان رسول الله ﷺ يجتمع مع أصحابه فى داره التى على الصفا بمكة حتى تكامل عدد المسلمين أربعين رجلا , وقد أوقف الأرقم بن أبى الأرقم تلك الدار لخدمة الدعوة الإسلامية لكن أحفاده باعوها بعد ذلك لأبى جعفر المنصور .
وتوفى فى خلافة معاوية سنة خمس وخمسين وصلى عليه سعد بن أبى وقاص بناء على وصيته (راجع لابن حجر – الإصابة ص ٤٢ وما بعدها) .

(٢) سورة الشعراء الآية (٢١٤) .

(٣) الشيخ محمد محفوظ قطب. الدعوة الإسلامية فى مكة،ص١٣٨ (طبعة دار الأستاذ بتركيا ١٩١١م) .

(٤) ابن أم مكتوم :عبد الله بن أم مكتوم ذكر فى أهل الصفة حيث قدم المدينة بعد بدر بيسير فنزل الصُفَّة وهو الذى نزل فيه ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وروى عن الرسول ﷺ الحديث وكان رسول الله ﷺ إذا لقيه فرش له ثوبه قائلاً أهلا بمن عاتبنى فيه ربى – راجع أبو نعيم فى الحلية ج ٢ ص ٤ .

(٥) سورة عبس الآية (٢١) .

ثم نقلت فيما بعد للمدينة ثانيا ، غير أنها لما كانت فى مكة كانت فى منزل الأرقم، أما فى المدينة فكانت فى مسجدها [١].

الفريق الثانى : القائلون بأن الصُفَّة كانت بالمدينة :

يرى أصحابه أن الصُفَّة كانت بالمدينة ، فى موضع بناه الرسول ﷺ فى طرف مسجده لفقراء أصحابه ، وأن أهل الصُفَّة لم يكونوا بمكة أبدًا ، ويستدلون على ذلك بأدلة من أبرزها :

أ – أن المسلمين فى مكة كانوا قلة ، وكانوا يأوون إلى دار الأرقم خلسة ، بدليل أن عمر ﷺ لما هداه الله للإسلام ، لم يكن يعرف موضع رسول الله ﷺ ولولا أنه قد دل عليه ما عرفه [٢].

ب– أن ابن أم مكتوم لم يكن يبحث عن رسول الله لكونه غاب عنه ، وإنما كان باحثًا عن الحقيقة الشرعية ، دون مبالاة لما يترتب عليها . وبناء عليه فلا يحسب بحثه عن رسول الله ﷺ على أنه بحث عن صاحب مال ، بدليل أن ابن أم مكتوم كان قرشيا ، ويعيش بين أهله ، ومن ثم كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله ، وكانت أمه من بنى مخزوم ، وبالتالى فلم يكن بحاجة إلى صفة حتى يأوى إليها [٣].

ج – أن تردد ابن أم مكتوم على رسول الله ﷺ كان تردد الجرئ فى طلب الحق ، وبالتالى فلا مانع من كون ابن أم مكتوم ، قد بلغه أمر اجتماع المشركين برسول الله ﷺ فأراد أن يقطع عليهم هذا الاجتماع ، حتى لا يسئ أحد منهم إلى رسول الله ﷺ .

د – أن الدعوة الإسلامية كانت فى مكة سرًا ، وفى أفراد قلائل لم تخرج عن الأقربين لقوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ ، ثم لما كان الأمر الإلهى بالإعلان جاء فى قوله تعالى : ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [٤]. وكان ذلك فى مرحلة متأخرة ، وبناء عليه لو كان الإعلان عن الدعوة بمكة أول الأمر ، وكان فيها أهل الصفة لحدثت مذبحة مروعة [٥] وبالتالى فلم تكن الصفة بمكة أبدا .

هـ – الروايات المقبولة تؤكد أن أهل الصُفَّة كان فيهم أبو هريرة ، وكذلك

---

(١) الشيخ نجم الدين حسن الكاوندى . أهل الإيثار ص ١١١ (طبعة مطبعة التقدم ١٣٣٥هـ).

(٢) الشيخ محمد نصر الدين البدرى، إسلام عمر، ص ١١٧ (طبعة دار الاستقامة، ١٣٣٥هـ).

(٣) راجع لابن حبان، الثقات ج (٣) ص ٢١٤ ومشاهير علماء الأنصار ج (١) ص ١٦.

(٤) سورة الحجر آية (٤٩) .

(٥) وبخاصة أن الكتب التاريخية قد حدثت عن وقوع أنواع من التعذيب على المستضعفين والأرقاء فلو كانت الصفة بمكة لنهض هؤلاء لمساندة إخوانهم أين كانت النتائج وإلا لما كانوا فى الصف الأول أبدًا .

البراء بن مالك [١] ، ووابصة بن معبد [٢] ، وغيرهم ولم يكن لبعضهم وجود بمكة بل منهم من لم يدخل الإسلام إلا بالمدينة المنورة ، طابت برسول الله ﷺ، ولو كانوا من أهل مكة ، لكان لهم بها أهل ، ووقعت لهم إجارة [٣]. كالشأن مع الأعراف التى سادت العرب فى ذلك الحين .

فما بالنا والبراء بن مالك كان من صالحى الأنصار ، لأنه كان خزرجيا وبالتالى فلم يكن مكيا ، ولم يعرف أن أحدًا هاجر إلى مكة ، أو أن مكة كانت دار هجرة، بل العكس كانت المدينة دار استقبال وهجرة ، بينما كانت مكة دار طرد ونفر ، يدل على ذلك قوله ﷺ : " والله لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت ". وقد حقق الله لنبيه ما كان يجول بخاطره ففتح له مكة ، فظلت هى العاصمة الثانية لدولة الإسلام حال حياة رسول الله، ثم تحولت إلى عاصمة روحية لكل المسلمين فى العالم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ف – أن أعداد أهل الصفة زادت فى بعض الأحيان على أربع مائة ، فأين هى الدار التى تسعهم فى مكة ، بل وأين القرشيون من ذلك العدد الذى يهدد أمرهم ، كالحال مثلاً مع جملة كبيرة عدتهم القتال ، ورغبتهم الجهاد ، وطبيعتهم حب الاستشهاد . ولم يكن ذلك فى مكة أبدًا ، بدليل آخر مؤداه أن رسول الله ﷺ لم يلجأ لدفع الأذى إلا فى المدينة .

و – ما ورد عن كون أهل الصفة من المهاجرين والأنصار . الذين كانوا يفقدون أسرهم ، فلو كانت الصفة بمكة ، ما أطلق على المقيمين فيها الوصف بالمهاجرين، مع أن الله تعالى قد امتدح المهاجرين والأنصار معًا .

فاللفظان – المهاجرين والأنصار – نقليان ، ولم يردا إلا فى السور المدنية قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ...** ﴾ [٤]. وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ**

---

(١) البراء بن مالك : من صالحى الأنصار ، وهو أخو أنس بن مالك – رضى الله عنهما – شهد أحدًا فما دونه من المشاهد واستشهد يوم تستر ، وقال فيه رسول الله ﷺ : " رب أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . منهم البراء بن مالك " . راجع الحافظ أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج (١) ص ٣٥٠ .

(٢) وابصة بن معبد بن مالك بن عبيد الأسدى : أسلم سنة تسع ، سكن الكوفة ثم تحول فأقام بالرقة إلى أن توفى بها . كان يجالس الفقراء ويقول هم إخوانى على عهد رسول الله ﷺ . روى الحديث عن رسول الله ﷺ . راجع أبو زكريا محيى الدين يحيى بن حسين بن حزام – تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٤٣٩ رقم ٦٦١ (دار الفكر ، بيروت ط (١) ١٩٩٦م).

(٣) وليس الأرقاء وحدهمالذين كانوا بالصفة ، راجع الأستاذ / عبد العاطى حمدان، الفكر الإسلامى رؤية واقعية. ص ٨١ ، وللشيخ محمد التهامى نصر الدين ، الدعوة الإسلامية فى مكة ص ٨١.

(٤) سورة التوبة آية (١١٧) .

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

الثالث : موقفنا من المسألة :

مما سلف رجح بالأدلة أن الصفة لم تكن إلا بالمدينة المنورة، التى نورها الله برسوله ﷺ ونضيف إلى ما سبق ما يلي:

١ - ما روى أن أبا هريرة قال : إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبى ﷺ ، وتقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون عن النبى ﷺ ، مثل حديث أبى هريرة ، وإن إخوانى من المهاجرين ، كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكان يشغل إخوانى من الأنصار عمل أموالهم . وكنت امرءا مسكينا من مساكين الصفة ، ألزم النبى ﷺ على ملئ بطنى ، فأحضر حين يغيبون ، وأعى حين ينسون. وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث يحدثه : " إنه لئن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول، فبسطت نَمِرَة على ، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلى صدرى ، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شئ " (٢).

٢ - أن الصفة كانت بمسجد المدينة المنورة ، ولم تكن بمكة المكرمة ، ولا مانع من القول بأنها كانت مكانًا يأوى إليه كل مسلم فقد مالاً أو عريقًا .

٣ - وأنها كانت بمثابة الدار التى يتم فيها إعداد القادة المستقبليين إعدادا متكاملاً، بدليل أن رسول الله ﷺ كان يولى عبد الله بن أم مكتوم على إمامة المدينة، عندما كان رسول الله ﷺ فى غزوة من الغزوات ، وكان يستخلفه ليصلى بالناس فى عامة غزواته .

---

(١) سورة الحشر آية (٩) .

(٢) الإمام البخارى ، صحيح البخارى ج (٢١) ص ٧٢١ حديث ١٩٤٢ [كتاب البيوع] باب ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ... ﴾ ، وأبو نعيم ، حلية الأولياء ج ١ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩.

ثالثاً : عدد أهل الصفة وأعمالهم .

أ - عدد أهل الصُفَّة :

ليس من السهل أن ينظر دارس إلى أهل الصُفَّة ، من غير أن ينظر إلى عددهم ، وبخاصة أن هؤلاء القوم كانت أعدادهم غير ثابتة ، مما حدا ببعض مؤرخى التصوف إلى إصدار آراء قد يكون فى بعضها نوع من الشطط ، وقد يكون فى بعضها الآخر شئ من القبول ، ومن ثم فسأعرض لآراء مؤرخى التصوف فى المسألة ، ثم أرجح منها ما تغلب أدلته .

الأول : أصحاب العدد الحصرى [١] :

١ - ذهب العلامة السهروردى - رحمه الله - إلى أن أهل الصُفَّة " كانوا نحواً من أربعمائة رجل ، لم تكن لهم مساكن بالمدينة ، ولا عشائر ، وإنما جمعوا أنفسهم فى المسجد ... " [٢].

ولكن هل هذا العدد المنحصر ، قدم العلامة السُهروردى عليه دليلاً ، أم أنه وقف على هذا الدليل ، واختزنه عنده ، تلك مسألة كم تمنيت الوقوف عليها . ويغلب على تقديرى أنه نقلها على أنها من حكايات المؤرخين الثقات عنده .

٢ - كما ذهب العلامة (محمد بن ناصر الحسنى) إلى أنهم ، كانوا نيفاً وثلاث مائة ، وكانوا جميعا رجالا ، وكانوا فى وقت واحد ، وكان عملهم القرآن، والذكر، والعبادة " [٣].

وهذا الرأى يتباعد كثيرًا عن سابقه بالنسبة للعدد ،كما أنه قد بين وجودهم جميعا فى وقت واحد ، ومعنى هذا أن الصُفَّة - كمكان - كانت واسعة جدًا ، ربما تجاوزت مساحة المسجد نفسه إذا نظر إلى هذا العدد ، مع المساحة باعتبارات ذات الزمن الذى ظهرت فيه الصُفَّة .

٣ - ذكر العلامة ابن عجيبة الحسنى ، أنهم " إذا كثروا بلغوا أربعمائة، وإذا قلوا كانوا ثمانين أو سبعين " [٤].إلى غير ذلك من الأعداد الواقعة فى نطاق الحصر .

إذن فهو حصرهم فى أقصى زيادة أربعمائة ، وفى أحيان أخرى يخلو المكان من أضياف الإسلام، فيكون سبعين وكأنه حصرهم فى الكثرة والقلة، غير أنه لم يبين ما أسباب هذا التفاوت من وقت لآخر ، ويبدو لى أن الكثرة، يمكن حسبانها أثناء عودتهم من أعمالهم، أو أثناء وجود عدد جديد بها، أما القلة فمردها لخروجهم عن الصُفَّة للعمل، أو الجهاد أوغير ذلك.

---

(١) يقصد بالحصرى هنا الذين تحدثوا عن أعداد ثابتة لأهل الصُفَّة، بغض النظر عن كمية هذه الأعداد.

(٢) العلامة السهروردى - عوارف المعارف ، ص ٦٢ .

(٣) العلامة محمد بن ناصر الحسنى - من أنوار التصوف الإسلامى ص ١٢١ (طبعة دار الوطن ١٣١١هـ) وبالهامش تحقيقات وتعليقات الشيخ عبد اللطيف محمد على الدروى .

(٤) العلامة ابن عجيبة الحسنى. الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، ص ٤٧.

٤ – ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية : " إلى أن عددهم قد جمعه أبو عبد الرحمن السُلمى ، وهو نحو من ستمائة أو سبعمائة ، أو نحو ذلك، ولم يكونوا مجتمعين فى وقت واحد ، بل كان فى شمال المسجد صُفَّة ، يأوى إليها فقراء المهاجرين، فمن تأهل [١] منهم أو سافر، أو خرج غازيا خرج منها ، وقد يكون فى الوقت الواحد فيها السبعون أو أقل ، أو أكثر ، وكان منهم سعد بن أبى وقاص [٢] أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأبو هريرة ، وخُبَيْبُ بن عدى [٣] وسلمان [٤] وغيرهم " [٥] .

وهذا الرأى أقرب للقبول ، وأيسر عند المقارنة ، لأن لغة الحسم فيه قد بنيت على ترصد دقيق للمسألة، بجانب رصد كل المواقف القائمة ، وبيان أنهم لم يكونوا عالة على إخوانهم من الأنصار ، بل كان النبى ﷺ يركز اهتمامه فى أن يأخذ كل واحد من المهاجرين عملا يحصل منه على قوته ، ويساهم فى قوت من لم يتيسر له عمل بعد، حتى يتأهل لذلك [٦].

وبناء عليه نستطيع القول بأنهم لم يظلوا على حال واحد ، من الثبات وعدم الحركة ، وإنما كان فيهم القادر على كسب قوته ، أو الإنفاق على إخوانه ، كما كان فيهم أهل الحرص على تعلم القرآن ، والسنة ، وتعليمهما لإخوانهم ، فى نفس الوقت فقد كانت عيشتهم "عيشة زهد وتقشف مشروع ، ويتم ذلك برضى نفس ،

---

(١) التأهل أنواع : منه ما يكون بالزواج من أنصارية ، أو صاحبة مال ، ومنه ما يكون بالمؤاخاة ، ومنه ما يكون بناتج العمل الذى تم كسبه ، ومنه ما يكون ناتجا عن الفيئ أو السلب ففى الحديث الشريف (من قتل محاربا فله سلبه) والسلب ما أخذه من القتيل من ثياب وسلاح ودابه وغيرها .

(٢) سعد بن أبى وقاص : أسلم قديمًا وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقال وأنا أول من رمى بسهم فى سبيل الله . شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وولى الولايات من قبل عمر وعثمان – رضى الله عنهم جميعًا – . راجع الإمام ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) صفة الصفوة المجلد الأول ص ١٣٣ – ١٣٥ تحقيق أبى على مسلم الحسينى (مكتبة الإيمان بالمنصورة ط (١) ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م) .

(٣) خُبَيْبُ بن عدى : شهد أحدًا مع النبى ﷺ وكان فيمن بعثه رسول الله ﷺ مع بنى لحيان فأسروه هو وزيد بن دَثِنَة ، فباعوهما من قريش ففتلوهما وصلبوهما بمكة بالتنعيم . راجع الإمام ابن الجوزى – صفة الصفوة المجلد الأول ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٤) سلمان الفارسى : يكنى أبا عبد الله أصله من قرية بأصبهان وهو الذى يقال له سلمان الخير سافر يطلب الدين مع قوم فغدروا به فباعوه من اليهود ، ثم إنه كاتب فأعانه النبى ﷺ فى كتابته، أسلم عند مقدم النبى فى المدينة ، ومنعه الرق من شهود بدر وأحد ، وأول غزوة غزاها مع النبى ﷺ الخندق ، وشهد ما بعدها وولاه عمر المدائن . راجع للإمام ابن الجوزى – صفة الصفوة – المجلد الأول ص ١٩٦ – ٢١١ .

(٥) شيخ الإسلام بن تيمية – مجموع الفتاوى مجلد (١٠) ص ٨١ (طبعة خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز) .

(٦) د / إبراهيم على أبو خشب ، يا رسول الله ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ ط ٢) بتصرف يسير.

كما كانوا يقضون أوقاتهم الأخرى فى قراءة القرآن وتدبره " [١].

فى نفس الوقت فإن رأى السُلمى قائم على أن أهل الصفة كانوا أصحاب قوة وقتال ، ورغبة فى العمل ، ومن ثم كانوا يزيدون أحيانا ، وربما تناقصت أعدادهم أحيانا أخرى ، لأن ذلك مرجعه إلى الظروف التى تفرض نفسها عليهم فى بعض الأحيان من غزو أو جهاد ، أو عمل أوتجارة فى مال الغير .

وقد كان رسول الله ﷺ يجرى الأرزاق عليهم ، وأحيانا أخرى يوزعهم على أهل الجِدْه والسعة ، حيث كان يبعث مع واحد من أهل الجده والسعة ثلاثة من أهل الصُفَّة، ومع الآخر أربعة، وكان سعد بن معاذ [٢] يحمل إلى بيته منهم ثمانية يطعمهم ويقوم على خدمتهم [٣].

الثانى : أصحاب الرأى غير الحصرى :

وهؤلاء يذهبون إلى أن أهل الصُفَّة لم يكونوا منحصرين فى عدد بعينه ويمثل هذا الرأى كل من :

١ – **العلامة محمد الإبانوسى** : حيث يذهب إلى أن عدد أهل الصُفَّة، لم يكن محددا ، ومن حصرهم فليس عنده دليل، لأن زيادتهم كانت متوالية، كما ان خروجهم من الصُفَّة ورجوعهم إليها لم يكن منضبطا على طريق الحصر العددى [٤] إذ ضبط المسألة كان يحتاج نوعا من الإدارة المعنية بذات الأمر وهذا لم يحدث.

وهذا الرأى قد يكون ظاهره القبول ، أو أن ذلك كان فى مرحلة أولى من مراحل الصُفَّة ، لأن رسول الله ﷺ كان يعين للصُفَّة راعيا يرعى أهلها من كافة النواحى ، وكان أبو هريرة [٥] " عريف من سكن الصُفَّة، من القاطنين [٦] ، ومن نزلها من الطارقين [٧] وكان النبى ﷺ إذا أراد أن يجمع أهل الصُفَّة لطعام حضره

---

(١) د على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ج ٣ ص (دار المعارف ط ٨).

(٢) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل ، يكنى أبا عمرو ، أسلم على يد مصعب بن عمير ، فاسلم بإسلامه بنو عبد الأشهل وهى أول دار أسلمت من الأنصار ، شهد بدرًا وأحدًا وثبت مع النبى ﷺ يومئذ ، ورمى يوم الخندق ، ومات فى شوال سنة خمس من الهجرة وهو ابن سبع وثلاثين سنة صلى عليه رسول الله ﷺ ، ودفن فى البقيع وقال رسول الله ﷺ : " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ – راجع الإمام مسلم – فضائل سعد بن معاذ ص ( ) .

(٣)العلامة السهروردى عوارف المعارف ص ٦٣.

(٤) الشيخ محمد الإبانوسى : الصوفية الأوائل – ص ١٣١ (مطبعة التقدم – ١٣١٥ هـ).

(٥) وهو أشهر من سكن الصفة واستطونها طوال عمر النبى ، وكان أكثرهم صبر على الفقر والجوع .

(٦) من طال بهم المقام فى الصفة ، لم يخرجوا عنها ، فأصبحوا قاطنين المكان أى لازموه .

(٧) وهم الأقوام الذين نزلوا الصُفَّة فترة يسيرة ثم انتقلوا منها ، أو هم الذين نزلوا إليها ليلا ، فقد كان أبو هريرة على معرفة بكل هؤلاء لإقامته الدائمة معهم ، وملازمته اياهم .

تقدم إلى أبى هريرة ، ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم ، وبمنازلهم ومراتبهم " [١].

وعليه فلا يعقل أن تجرى الأرزاق من قبل رسول الله ﷺ على أعداد غير معروفة. كما لا يمكن أن يكون القيّم على الصُفَّة جاهلاً بأعداد أهلها ، وبخاصة أنه يقوم بتوظيفهم فى الأعمال المتناسبة مع إمكانيات كل فرد منهم.

٢ – الشيخ محمد بن على الدرينى [٢] : يذهب إلى أن أهل الصُفَّة لم يكن حصرهم ممكنا ، وأنهم كانوا من أهل العلم والعرفان ، وأنهم إن حصرهم حاصر فقد تكلف النتيجة " [٣] لأن ضبط المسألة خارج عن الحصر .

وهذا الرأى فيه غرابة ، لأنه يفضى إلى اعتبار العدد موهوما ، فيسمح بالاتساع الكبير جدًا ، كما يسمح بالانحسار الشديد جدًا ، ومثل هذا الرأى يكون فى قبوله شئ من المغامرة ، التى لا تؤدى إلى نتائج صحيحة تفيد الدارس فائدة علمية يمكنه البناء عليها فيما بعد .

٣ – الإمام على بن الحسن المساعدى : يذهب إلى أن أهل الصُفَّة كانوا " أعدادا تترى أرسالا أرسالاً ، وبناء عليه فلا يمكن حصرهم فى عدد أبدًا " [٤].

وهذا الرأى يفضى إلى حسبان الصفة كأنها بوابة تستقبل الداخلين ، فلا يخرجون منها ، لأن معنى كونهم أرسالا ، يؤدى إلى نتيجة عامة ، وهى أنهم لم يكونوا يخرجون ، ولو كان الأمر كذلك لضاق بهم المسجد ،وضعفت إمكانية أهل المدينة عن حملهم .

الثالث : الرأى الراجح :

مما سبق اتضح أن كلا الرأيين لا يسلم من النقد ، وبناء عليه ظهر فريق ثالث، ينتهى إلى التوفيق بين ناتج الآراء السالفة معتمدًا على بعض النصوص التى تؤيد ذلك، فيقول صاحب الحلية : " كان عدد قاطنى الصفة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال ، فربما تفرق عنها وانتقص طارقوها من الغرباء والقادمين ، فيقل عددهم ، وربما يجتمع فيها واردوها من الوراد والوفود فينضم إليهم فيكثرون" [٥].

وعلى هذا الرأى يصعب علينا حصر أهل الصُفَّة فى عدد معين، لأن أعدادهم تختلف بحسب الأوقات والأحوال ، سواء كثرة أو قلة لأن من دخلها قد يمكث بها

---

(١) العلامة : أبو نعيم – حلية الأولياء ج (١) ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) وهو غير الشيخ عبد العزيز الدرينى الذى يظهر فى كتابات الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، وبخاصة كتابه لواحق الأنوار(الطبقات الكبرى) .

(٣) الشيخ محمد بن على الدرينى – من رياض الحياة الروحية فى الإسلام ، أهل الصُفَّة ص ٤١٢ (طبعة الوطن ، ١٩٣١م) بعناية الشيخ محمد زكى فرج .

(٤) الشيخ على بن الحسن المساعدى – الإسلام والتصوف ، قواعد مشتركة ، ص ٧١ ، ٦٢ (طبعة المطبعة المصرية القديمة ١٣١١ هـ) .

(٥) العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج (١) ص ٣٤٠ .

قليل من الوقت ، ثم يغادرها لعمل، أو لمؤاخاة، أو غير ذلك ، وقد يقطن فيها زمنا حتى يتيسر له العمل أو غيره .

ويؤكد ذلك أن أهل الصُفَّة كانوا جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ يأتون إليها، ويخرجون منها[١]، وكان لها حاصر يجرى عليهم الأرزاق، إذا دخلوها ، ويوقفها إذا خرج واحد منها ، كما أن الصُفَّة كان لها راع مهمته تجهيز القادرين على العمل من أهلها ، وتوزيعهم على الأعمال التى يصلحون لها " [٢].

فى نفس الوقت كان أهل الصُفَّة يعتبرون المثال الأعلى للمتجردين من أعباء الحياة ، فلا أهل لهم ولا مال ، وكلهم بادى الانفاض، جاوى الوفاض [٣] ، تركوا الدنيا لأهلها ، وانقطعوا لله بقلوبهم وجوارحهم ، على الرغم من أن بعضاً من " أهل الصُفَّة - رضى الله عنهم - كانت لهم قبل الهجرة أموال، وعبيد، وإماء، وديار، وعقار، وأهل، وعيال ، فلما هاجروا إلى الله ورسوله خرجوا عن ذلك كله وتركوه لله، فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شئ " [٤] ، ومن ثم لم يلههم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال ، كما لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى[٥] . فصاروا الصف الأول من جنود الله المجاهدين لرغبات النفس ، وشهوات البدن ، المدافعين عن دين الله المبلغين تعاليمه إلى ما أمر الله .

والذى تطمئن إليه النفس ، هو أن النصوص الصحيحة لم تحدد عدد أهل الصفة من حيث الحصر ، ذكرًا أو إهمالاً ، وإنما يمكن القول بأنهم ربما قلوا، وربما كثروا، وأن حصرهم كان وقتيا ، وليس على الدوام . لأنه ربما دخل الطارق اليوم، وخرج فى نفس اليوم ، بما تأهل له من أسباب العيش، وربما طال به الأمد.

ومن ثم يظهر لى أن رسول الله ﷺ جعل من أهل الصُفَّة النموذج الذى جمع بين عدة وزارات حكومية فى وقت واحد ، وأن هذه الوزارات كانت كلها تعمل فى ذات الوقت لغاية واحدة ، لا تعارض بين عمل واحدة والأخرى .

فجارى الأرزاق كان يمثل وزارة التموين بلغة اليوم ، كما أن حاصر الأعمال كان يمثل وزارة القوى العاملة بلغة اليوم أيضا، أما الذى كان يقوم بتلقينهم طرائق

---

(١) كأنها بأقرب شبه ببطاقات التموين ، لكنها يومية فمن دخل الصُفَّة أجرى عليه رزق يومه ، فمن خرج عنها أمسك رزقه لغيره .

(٢) الشيخ محمد بن على بن الشريف الحسينى ، أهل الله هم خاصته ، ص ٤١ - ٤٢ (طبعة دار المواهب بالخلافة العثمانية ١٣٠٥ هـ).

(٣) فكلهم أزال ما علق به من الدنيا حتى أصبحوا كالثوب التى ذهبت عنه صبغته . وكأنهم يضعون أمام أعينهم قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ سورة الأنعام الآية رقم (٩٤) .

(٤) العلامة أحمد بن عجيبة الحسنى ،الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ، ص ٥١.

(٥) د/ على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٣ ص ٨٢ .

العبادة ، ومناهج العلم فقد تمثلت فيه صورة أعلى وزارة علمية .

وبناء عليه، أستطيع القول بأن الرسول ﷺ قد وضع النواة الأولى لأول نظام إدارى فى الإسلام ، كما وضع نظام الدولة الإسلامية، وحدد أسسها التى تضمن لها البقاء والاستمرار ، بنفس القوة مهما طال بها الأمد [١].

وقد تحقق ذلك فى الصُفَّة وأهلها ، فهم المتجهون نحو المسجد الملازمون لرسول الله ﷺ الحافظون عنه أقواله وأفعاله، ومنهم حفظة القرآن الكريم ، وكتبة الحديث ، والسفراء والعمال ، وغير ذلك مما مارسوه من الأعمال ، وبذلك ترى آثارهم واضحة فى أشكال الحياة وصورها المختلفة التى انعكست على الصوفية الأوائل، وظهرت في مدارس التصوف الإسلامى المتقدمة .

ب - أعمال أهل الصفة :

لم يكن الإسلام ليسمح أبدًا بأن يعيش الناس عالة على غيرهم ،وأن يكونوا هملاً ينتظرون القدر ، وإنما طلب الإسلام أن يكون المسلمون من أصحاب الأعمال [٢] الصالحة ، ونجد ذلك واضحًا فى قوله ﷺ حين وصف الإيمان، وهو جوهر الدعوة الإسلامية، وجعله مقرونا بالعمل بحيث لا ينفك عنه فقال : " ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتخلى . ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل " [٣].

وبذلك جعل العمل من علامات الإيمان الحق ودلائله ، بغض النظر عن طبيعة العمل الذى يقوم به صاحبه، من كونه حرفيا أو مهنيا ، تقنيا أو عقليا. بدليل أن رسول الله ﷺ قال : " من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له " [٤].

ومن ثم فلم يكن الإسلام ينظر إلى عمل ما بالتحقير له أو التبجيل ، إلا إذا كان العمل مخالفا للشريعة الإسلامية فإنه يحقر حتى وإن كان فى نظر أصحابه مبجلا . أما وقد وافق الشرع وتعاليمه ، فصار القوة التى تدفع الفرد والجماعة لبناء مجتمع قوى من الناحية العملية ، كما صنعت العقيدة الصحيحة القوة الإيمانية

---

(١) ولو أن الأمة الإسلامية تمسكت بالتعاليم الإلهية ، لظلت قائمة الخلافة الإسلامية، وبقيت الأمة مرفوعة الرأس ، مهيبة الجوانب ولمزيد من التفاصيل راجع الأحكام السلطانية للعلامة الماوردى تحقيق د /عبد الرحمن عميره ط دار التراث ، الأحكام السلطانية للقاضى أبى العلاء يعلى الفراء تحقيق الشيخ محمد المفنى ط الحلبى بالقاهرة .

(٢) وردت كلمة العمل (ع - م - ل) ومشتقاته فى القرآن الكريم نحو ٣٥٩ مرة . راجع الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى ، المعجم المفهرس ، ص ٥٩٣ - ٥٩٩ (طبعة دار الحديث، ط (١) ١٤١٧هـ - ١٩٦٦م) .

(٣) الإمام جلال الدين السيوطى ، الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير المجلد الأول ص ٤٨ حديث رقم (٢٨٨) (دار بيروت ط (١) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) .

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط ح ٧ ص ٢٨٩ - وذكره ابن حجر فى فتح البارى بألفاظ مختلفة ح ٤ ص ٣٠٦ .

فصارت القوة فى العمل [١] ليس هذا فحسب بل صار " العمل لإنتاج أكثر من حاجات الفرد الذاتية، واجبا على كل مسلم . قادر على العمل ، والإنسان المسلم ملتزم بمصالح الآخرين، كما هو ملتزم بمصلحته ، ذلك أن الفرد الذى يعمل بقدر حاجته الاستهلاكية ، لا يترك خيرا للآخرين ، مما يؤدى إلى جمود المجتمع واقتصاده ، وتناقص رفاهيته. أما الفرد الذى ينتج ما يزيد عن حاجته فهو يشارك فى نمو مجتمعه وازدهاره " [٢].

والناظر فى أعمال أهل الصُفَّة يراها متنوعة إلى حد بعيد ، فقد نشطوا للعمل الدنيوى لسد حاجاتهم الضرورية ، وحاجات إخوانهم الغير قادرين ، فنجدهم فى الأسواق، ونجدهم مع التجار، ومع الزراع ،كما نجدهم فى الأعمال العقلية الدينية ، مثل العمل فى خدمة القرآن والحديث ، كما نجد منهم كتاباً لرسول الله ﷺ . **ومن أبرز هذه الأعمال ما يلى :**

١ ± **قراءة القرآن وتدبره :** أنزل الله القرآن دواء وشفاء ورواء قال تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [٣]. وكان أهل الصُفَّة ملازمين فى أغلب أحوالهم لرسول الله ﷺ وبالتالى فما من آية نزل بها الوحى إلا وكانوا الأقرب إلى سماعها ، والتعلق بها، وفى نفس الوقت كانوا حريصين على الاستفادة منها، بجانب الاستزادة من الأفهام التى تجئ حولها .

وبناء عليه فقد كانوا يعملون فى حفظ القرآن الكريم ، وتعلمه وتدبره اقتداء بقوله تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾[٤]. وقوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [٥].

ولما كان أهل الصُفَّة من أولى الألباب ، فقد صادف هذا التلاقى آنذاك أذانا صاغية ، وعقولا ذكية ، وقلوبا متفتحة ، فأتى بأطيب الثمر التى لا بد وأن تكون ناتج الأعمال الصالحة، أو الأفعال الكريمة .

فنشطوا فى تعلمه وتعليمه لغيرهم، بأسلوب لين هادئ ، امتثالا لقوله تعالى : ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...** ﴾ [٦]. كما فطنوا لقوله ﷺ:

---

(١) راجع : القاضى يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ٣ (طبعة دار المعرفة ، بيروت لبنان) بتصرف يسير .

(٢) الدكتورة أميرة عبد اللطيف مشهور الاستثمار فى الاقتصاد الإسلامى – ص ١٠٨ ، ١٠٩ تقديم الشيخ محمد الغزالى (مكتبة مدبولى ١٩٩٠م) .

(٣) سورة الإسراء آية (٨٢) وقال تعالى : ﴿ أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ سورة فصلت آية (٤٤) .

(٤) سورة ص آية (٢٩) .

(٥) سورة محمد آية (٢٤) .

(٦) سورة النحل آية (١٢٥) .

" خيركم من تعلم القرآن وعلمه " [١].

ومما يلفت النظر هنا قول الرسول ﷺ " خيركم ... ولم يقل من خيركم" والفرق بين اللفظين كبير ، فالأول يدل على الأفضلية المطلقة ، بينما يدل الثانى على أفضليات متعددة ، وعليه ، فقد ألمح الرسول الكريم – صلوات الله عليه وسلامه – إلى أن تعلم القرآن وتعليمه هو أفضل الفضائل . وأعلى أوسمة السماء ، فلا يدانيه أو يساويه غيره من الفضائل ، هذا العلو أو السمو أبدًا [٢].

وبذلك نرى الواحد منهم وقد جمع بين تعلم القرآن ، وفقه معانيه والعمل بما فيه، وبين تعليمه ، فصار وكأنه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر والمتعدى ، داع إليه جل شأنه بفرقانه [٣]. ومن ثم كانوا مهره به ، من حيث التلاوة والأحكام، لأن مرجعهم فيه هو التلقى عن رسول الله ﷺ ، كما أن أهل الصُفّة لم تكن لديهم مشاغل دنيوية ، وإنما كانوا ينشغلون فى أغلب أوقاتهم بالقرآن ، فعن ابن مسعود [٤] أنه قال : " أن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل ... " [٥].

والناظر إلى القرآن الكريم يراه مأدبة الله حقًا ، ففيه دعوة الناس جميعا – على اختلاف حظوظهم – العقل والقدرة على التفكير : فمنه ما يتجه إلى القلب ومنه ما يتجه إلى العقل ، ومنه ما يشتمل على الحقيقة واضحة جلية، يفهمها الجميع ومنه ما يجئ فى أمثال يعلمها العالمون [٦] من أجل هذا كله كان القرآن حريا أن يصل إلى ما أراد من الهداية ، وتبين الحق من الباطل ، وإنقاذ الخليقة من الجهل والضلال [٧] فاستنارت به العقول بعد الجهالة ،وأشرقت به القلوب بعد غفلة ، ولم

---

(١) الإمام البخارى ج ( ) باب فضائل القرآن ص وفى الحديث أيضًا إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه .

(٢) راجع الدكتور / الحسينى أبو فرحة ، مأدبة الله – دراسات فى علوم القرآن ،ص ٣٥ (الفاروق الحديثة ، القاهرة – ط (٣) ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) بتصرف يسير.

(٣) الشيخ عبد الرحيم عنبر الطهطاوى – هداية البارى فى صحيح البخارى ، ص١٤٧ (دار الريان للتراث) .

(٤) حيث كان من أهل الصفة قبل أن يكون له بيت يلجأ إليه ، وهو صاحب سر رسول الله ﷺ ، وكان ﷺ هو الذى يُلبس رسول الله ﷺ نعليه ويمشى أمامه بالعصا حتى يدخل أمامه الحجرة فإذا أتى رسول الله مجلسه نزع نعليه فأدخلهما فى ذراعيه ، وأعطاه العصا . وكان ﷺ يقول لأصحابه : " أنتم أطول صلاة ، وأكثر اجتهاد من أصحاب رسول الله ﷺ . وهم أزهد منكم فى الدنيا ، وأرغب منكم فى الآخرة " .
راجع الشسخ عبد الوهاب الشعرانى – الطبقات الكبرى ج (١) ص ٧٣ – ٧٤ .

(٥) العلامة أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج (١) ص ٦٠ .

(٦) قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾ سورة العنكبوت الآية(٤٣).

(٧) الدكتور محمد يوسف موسى ، القرآن والفلسفة ، ص ٨ ، دار المعارف ط (٤) ١٩٨٢م بتصرف يسير ..

لا وهو الكتاب الذى لا تفنى ذخائره ، ولا تنقضى عجائبه فهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وسلمت به الآخرة ، وصدق الملك القدوس حيث قال : ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ (١).

وقد كان ابن مسعود ﷺ يقول : ينبغى لحامل القرآن ، أن يعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونا ، حكيما حليما عليما سكيتا . وينبغى لحامل القرآن أن لا يكون جافيا، ولا غافلاً، ولا صخابا ولا صياحًا ولا حديدا (٢).

وكان ابن مسعود ﷺ من أوائل الذين تلقوا الوحى عن رسول الله ﷺ ، وكان أيضا من طائفة القراء الذين ينعقد بهم الكثير من خلق القرآن الكريم ، بين أهل الصُفَّة وبين غيرهم (٣). وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: " من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد" (٤).

وعلى هذا نرى أن تعلم القرآن وتعليمه ، كان الشغل الشاغل لأهل الصُفَّة أو العمل الأول لهم ، أنه عمل يؤتى أكله مع غرسه ولا ينزل بتزايد نفعه حتى لا يدانيه نفع ، فعن عقبة بن عامر . قال : خرج إينا رسول الله ﷺ ونحن فى الصفة فقال : " أيكم يحب أن يغدوا كل يوم إلى بطحاء ، العقيق فيأتى منه بناقتين كوماوتين (٥) فى غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ " فقالوا يا رسول الله كلنا يحب ذلك . قال : " أولا يغدوا أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله تعالى خير له من ناقتين ، وثلاث ، وأربع، خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل ؟ " (٦).

فاعتكفوا على كتاب الله تلاوة وحفظًا ، وتدبرًا وعملاً ، فأنزل الله عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة حتى علا ذكرهم فى الدينا والآخرة.

(٢) **مذاكرة الحديث الشريف** . جاءت ظواهر آيات قرآنية، وأحاديث نبوية ، تؤكد أن معين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واحد ، وأنهما من عند الله

---

(١) سورة المائدة آية (١٥ - ١٦) .

(٢) العلامة : أبونعيم . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج (١) ص ١٣٠ والحديد هو الذى يكون غليظا جافا فى القراءة والأذان والإقامة ، المعجم الوجيز (باب الحاء) ص ١٤٠.

(٣) راجع فى هذا الشأن الدكتور / على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى ج ٣ ص ٨٢.

(٤) العلامة : أبو نعيم . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج (١) ص ١٢٤ وراجع لابن الجذرى النشر فى القراءات العشر.

(٥) كوم الشئ : جمَعَه وألقى بعضه على بعض ، و (الكوماء) الناقة العظيمة السنام. راجع المعجم الوجيز ص ٥٤٥ ..

(٦) العلامة أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج (١) ص ٣٤١ .

معًا ، ولا يمكن لمسلم أن يأخذ بأحدهما ويترك الآخر ، وإنما لا بد من الاستمساك بهما جميعًا ، فهما كالعينين إذا تركت واحدة لم تكن الثانية كافية .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ [١]. فالكتاب هو القرآن الكريم ، والنور هو الرسول الأمين ﷺ ولا يمكن أن يحمل الأمر على غير ذلك ، إلا إذا حدث شيء من التجاوز. وقوله جل شأنه: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ [٢].

ومن السنة قوله ﷺ : " تركت فيكم ما إن تمسكتم به بعدى لن تضلوا بعدى أبدًا، كتاب الله وسنتى " [٣].

ومن ثم فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، لا يمكن لمسلم أن يتخلى عنهما، أو عن شيء منهما أبدًا . وبناء عليه فقد فهم الصحابة – رضوان الله عليهم – ضرورة التمسك بالقرآن الكريم المصدر الأول ، باعتباره عقيدة ، والسنة النبوية الشريفة المصدر الثانى باعتباره تشريعًا وأخلاقًا . كما أدركوا أن العمل بهما واجب ، لما فيه من طاعة لله ورسوله ، ثم التزموا ما نتج عنهما من مصادر تابعة لهما، وهى ثلاثة مصادر متفق عليها.

يقول الإمام الخوارزمى : المصادر المتفق عليها ثلاث : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع الأمة , أما المختلف فيها فثلاث: القياس ، والاستحسان، والاستصحاب . ثم أخذ فى تفصيل المتفق عليه ، والمختلف فيه بهذا الاعتبار فقال : فأما كتاب الله فإن الفقيه يجب أن يعرف تأويله ، ووجوه الخطاب فيه من الخصوص والعموم ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهى والإباحة .وأما سنة رسول الله ﷺ فهى ثلاثة أضرب : أحدهما القول ، والآخر الفعل، والثالث الإقرار , فالقول : ما روى عنه ﷺ أنه قاله ، والفعل: ما روى عنه فعله ، والإقرار : ما روى أنه أقره أو أقر عليه قومه ولم ينكره عليهم [٤].أما الإجماع : فهو اتفاق الصحابة والمهاجرين والأنصار واتفاق العلماء فى الأمصار خلال كل عصر من العصور [٥]. أما القياس : فهو من المختلف فيه ، ولذا قال به جماعة

---

(١) سورة المائدة الآية (١٥ ، ١٦) .

(٢) سورة الحشر الآية (٧) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك باب حجة رسول الله ١٠٢٥/٢ ، وكذلك الإمام مالك فى الموطأ كتاب القدر ٨٩٩/٢ حديث رقم (٣) والحاكم فى المستدرك كتاب العلم باب خطبته فى حجة الوداع ٩٣/١ . وقال هذا حديث متفق على إخراجه فى الصحيح ووافقه الذهبى .

(٤) كتناول طعام الضب على مائدة رسول الله من غير أن يأكله ، والعزل عند الجماع من غير أن ينكره ..

(٥) أما إجماع العامة فلا يعتبر مصدر شرعيا لأنه لا يخرج عن كونه إجماع غوغاء كثر فيه لغطهم وصياحهم .

من العلماء، ووصلوا حد الكثرة، ولم يقل به مجموعة من الظاهريين وهو نوعان: قياس علة ، وقياس شبه . وأما الاستحسان : فهو قياس لكنه خفى [١] مثل جواز دخول الحمام، وإن كان يستعمل فيه من الطين والماء مجهول المقدار .أما الاستصلاح : فهو التعامل الذى يجرى بين الصيارف وتابعيهم، ورقًا بورق ، وعينًا بعين ، بزيادة ونقصان [٢]. وإن كان ذلك محصورا على غيرهم لما فيه من الصلاح للعامة [٣].

وعلى هذا نرى المؤمن يدرك تمامًا العلاقة المتبادلة بين القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، فالسنة توضح ما أبهم فى القرآن ، أو تطلق ما قيد ، أو تقيد ما أطلق ، أو تفسير ما أجمل، إلى غير ذلك من الوجوه المتعددة [٤].

ومن هنا كان حرص الصحابة رضوان الله عليهم على القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف كبيرًا ، طبقًا لتوجيهات رب العالمين ، ولإدراكهم أن لله على كل عبودية ، بحسب مرتبته، ففضلوا عبودية العالم على عبودية الجاهل، فعمدوا إلى نشر السنة، والعلم الذى بعث الله به رسوله، والصبر على ذلك [٥].

يدل عليه أن أهل الصُفّة لم يكونوا أصحاب دنيا ، بل كانوا أصحاب عبادة، حتى أصبحوا وأمسوا وشغلهم تفهم الكتاب وتعلمه ، ونهمهم الترنم بالخطاب وترديده [٦] كما كانوا أصحاب التحاق برسول الله ﷺ حيث ذكر أهل السير أنه لما كثر القول فى أبى هريرة وروايته الحديث ، قال أبو هريرة : كان الناس أصحاب أموال وتجارة وبيوت يأوون إليها ، أما أنه فلم يكن لى شىء من ذلك ، وإنما كنت أتبع رسول الله ﷺ – فآخذ الحديث عنه، وقد ربطت الحجر على بطنى من شدة الجوع [٧] حتى قال البخارى على أن أبا هريرة قد روى عنه نحو ثمانمائة حديث من أهل العلم وكان أحفظ من روى الحديث فى عصره [٨].وكأنه اتخذ من مذاكرة

---

(١) وتفرد بالاستحسان أبو حنيفة وأصحابه ، ولذلك سموا أصحاب الرأى عند الكثيرين ، راجع الدكتور / محمد مصطفى إمبابى – الحركة الفقهية الإسلامية ، ص ١٦٨ وما بعدها . طبعة الساعى ١٩٧٣م .

(٢) وهذا الاستصلاح مما تفرد به الإمام مالك وأصحابه ، وليس قاعدة لدى كل فقهاء الشريعة ويعبر عن صوره من صور الاجتهاد .

(٣) أبو عبد الله محمد الخوارزمى الكاتب ، مفاتيح العلوم ، ص ٨ ، ٩ تحقيق فان فلوتن (الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر) سلسلة الذخائر العدد ١١٨ / ٢٠٠٤.

(٤) وقد أفاضت كتب أصول الفقه فى بيان هذه الجوانب على ناحية تفصيلية .

(٥) العلامة ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) – أعلام الموقعين– المجلد الأول.ج ٢ص ١١٧ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (طبعة مكتبة مصر ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) بتصرف يسير.

(٦) العلامة أبو نعيم ، حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء ج (١) ص ٣٤٢ .

(٧) الشيخ محمد بن الحسن الشيبانى ، تراجم الصحابة ص ١١٢ ط دار التقدم ١١٢٣هـ .

(٨) العلامة ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، القسم الأول ص ٤٤٤.

الحديث عمل يمتهن به فى مقابل الأعمال الأخرى بل فضله على ما سواه .

وكان أهل الصُفَّة فى أغلبهم يقومون على نفس الاتجاه ، بدليل أن ابن مسعود ﷺ كان هو الآخر من رواة الحديث ومروياته مشهورة لدى المحدثين فضلا عن دوره فى قراءة القرآن وتفسيره أيضًا .

بل أثر أن الكثيرين من أهل الصُفَّة كان الواحد منهم إذا عمل بالنهار فى أعمال بدنية فإنه لا يأوى إلى فراشه حتى يسترجع عن ظهر قلب ما نزل على رسول الله ﷺ أو تحدث به ، إذ كانوا يعتبرون هذه الأعمال جميعا هى التى تقربهم من الله عز وجل، ولا يمكن لمن يسعى لرضوان الله أن يعمل فى غير ما فرضه الله .

(٣) العمل فى رضخ النوى : عرف الصحابة أن العامل العابد يؤجر بعمله ، وعبادته ، وأن العابد قد يؤجر بعبادته ، فإذا كان عاملا عابدًا عالمًا فإنه يؤجر ثلاث مرات، أجرًا على عمله، وأجر على علمه، وأجرٌ على عبادته، قال تعالى : ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾ [١]. وقال جل شأنه : ﴿ **فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ [٢].

وبناء عليه فقد كان بعض أهل الصُفَّة يعمل فى رضخ النوى بالحجارة ، حتى يكون هذا الرضخ مهيئًا أو صالحا للاستعمال فى أشكال الحياة المختلفة ، وبخاصة ما يتعلق بتغذية الحيوانات [٣]، لأن أهل الجزيرة العربية كانت لهم ثروات محددة فى مصادرها[٤] ، كما أن طبيعة عملهم فرضت عليه التعايش مع الظروف البيئية ، واستثمار طاقاتهم فى حدود ذات الإمكانيات ، على أساس أن الإنسان ابن بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها .

وفى نفس الوقت فإن رضخ النوى بالحجارة ، كان عادة يقوم بها البعض ممن لا يجيدون الكر والفر ، أو لا يجيدون أعمال الرعى والتجارة، فكانت عملية رضخ النوى من الأعمال التى يمكن للمرضى والزمنى، والنساء والرجال ، والصغار القيام بها، كما أن عائدها لم يكن مغريا للفتيان الأشداء، وبالتالى فقد كان أهل الصُفَّة يقومون بهذا النوع من العمل تحقيقا لهدفين :

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٢).

(٢) سورة سبأ الآية (٣٧) .

(٣) الشيخ محمد حسن على الطويل، أهل الإسلام الأوائل ص ١١٢ الطبعة الأهلية ١٩٢١ وراجع أيضا للشيخ نصر الدين بن محمد الطويل ، التصوف والصوفية ص ٤١ (ط ١٣٠٨هـ).

(٤) مصادر الثروة تقع عادة فى أمرين على سبيل الإجمال : الأول ما يكون على ظهر الأرض كالزراعة وتربية الحيوان وما كان من هذا القبيل ، الثانى : ما يكون فى باطن الأرض كالذهب والحديد والبترول وما يأتى من هذا الجانب ، أما التجارة فى شىء منها- ما فوق الأرض أو ما فى باطنها – فإنه يلحق بها أو بأيهما – راجع الدكتور / حسن عطوة أبو زنيمة ، مصادر الثروة فى العالم المعاصر ص ٣١ (طبعة مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٧٦م) .

❁ **الأول** : التأكيد على أن الإسلام يأمر بالعمل، ويحث عليه، فيما يتعلق بالدين والدنيا، لأن الإسلام دين ودنيا، سعادة فى الحياة ونعيم بعد الوفاة [١].

❁**الثانى** : عدم الاستهانة أو السخرية من أى عمل ما دام فيه رضوان الله عز وجل ؛ لأن هذا العمل نوع من أنواع المعروف ، وفى الحديث الشريف يقول ﷺ: " لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلق أخاك بوجه طلق ".

وربما يقال أن رضخ النوى من الإعمال الدنيئة التى يمكن أن يقوم بها العبيد، فلماذا أقبل عليها أهل الصفة ، ولم ينظروا إلى غيرها وهم أصحاب السبق فى الإسلام، والفضل فى نصرة دين الله، ومنهم العالمون بعلوم الكتاب والسنة ؟ .

والجواب :

أن العملية القائمة فى رضخ النوى بالحجارة تتمثل فيها مظاهر الإبداع التقنى، على أساس أن المجهود العضلى هو آخر المطاف إذ تسبقه عدة مظاهر، تقوم عل التمييز بين نوعيات النوى المجموع إلى بعضه ، وفصل ما يصلح منها للاستخدام فى الزراعة، حتى تنشأ عنه فسايل النخيل الجديدة [٢] .

ومن ثم تبين أن عملية رضخ النوى بالحجارة كان يقوم بها بعضٌ من أهل الصُفَّة ، وهى تدر عائدًا ماديًا متى بيعت عند عدم الحاجة إليها ، كما توفر نوعًا من الغذاء، رخيص القيمة، لإبل الصدقة متى احتاجت إليها ، وبناء عليه فقد كان أهل الصُفَّة يحققون المعادلات الصعبة كلها فى وقت واحد .

(٤) غرس النخيل وتأبيره : كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون أن الجزيرة العربية بيئة صحراوية، وأنها تحتاج للنخيل بصفة دائمة ، لأنه يتحمل جفافها ، ويمكنه الصبر على ندرة مياهها ، كما أنه يمثل القيمة الغذائية الأساسية بالنسبة لأهلها ، بدليل أن العرب كانوا يعيشون – أغلب أوقاتهم على التمر ، وكانوا أصحاء البدن، أشداء، لأن أمعائهم لم يقع لها ما يقع لأصحاب الأمعاء الآخرى التى تمرض بما يدخل إليها، وتعجز عن هضمه [٣].

---

(١) وقد كان هذا العمل من قبيل الصدقات التى يؤجر فاعلها بها أجرين ففى الحديث الشريف: " .... وإماطة الأذى عن الطريق صدقة " وأيضًا " سعى المرء على نفسه وأهله صدقة ".

(٢) وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : " إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها " .

(٣) وفى الحديث الشريف : " كل ما شئت وألبس ما شئت ما أخطئك خصلتان سرف ومخيله " ، وقد ثبت أن إدخال الطعام ذى الكميات عالية النسب المتباينة يؤدى إلى التخمة ويورث الأمراض العديدة ، ومن ثم جاء التحذير عن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ الأعراف الآية (٣١) وقد فهم العلماء هذا التحذير ونبهوا إليه غيرهم فنرى الإمام الشافعى مثلاً ينكر آفة الشبع ويرى أن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة كما أثرى عنه القول بأن رأس التعبد تقليل الطعام . راجع إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبو حامد الغزالى ج (١) ص ٢٥.

كما نجد العلامة الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى يعد الشبع من عيوب النفس فنراه يقول :

ونظرًا لكون النخيل يمثل مصدرًا هامًا من مصادر الثروة في البيئة الصحراوية ، فقد كانت عنايتهم بالنخيل فائقة من كل ناحية، بدليل أنهم سألوا رسول الله ﷺ - عن تأبير النخل، كما سألوه - ﷺ عن توبير النخل فقال ﷺ : " أنتم أعلم بأمور دنياكم " .

ولذلك عرفت جماعة من أهل الصُفَّة باسم النخالين، لأنهم كانوا يعملون بالنخيل غرسًا لها، وتهذيبًا وتأبيرًا ، وكانوا في كل ذلك مهرة إلى الحد الذى جعل عملهم هذا يمثل صورة راقية من صور العمل في الإسلام [١].

كما كانت عمليات تأبير النخل تتسم بنوع من المعرفة الدقيقة ، وبخاصة في السلالات حيث لا يمكن تأبير إناث النخيل بذكور من غير نوعها وإلا شاصت [٢].

ودل على اهتمام أهل الصفة بالنخيل ما جاء في الأثر من أن جماعة حديثي عهد بالإسلام احتاجوا الطعام ، فأخذهم ابن مسعود إلى نخل الصدقة ، فلما صعد إلى القنوان ، رأوا نحافة جسمه ودقة أطرافه ، فضحكوا من ذلك [٣]. فخرج عليهم رسول الله ﷺ ثم قال : " ما يضحككم " قالوا : من دقة ساقيه، قال النبي ﷺ : " والذى نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد " [٤].

وهكذا كان ثلة من صحابة رسول الله ﷺ يجيدون ما يتعلق بغراس النخيل وتأبيرها، وكان منهم من أهل الصُفَّة الذين أتقنوا هذا العمل إلى حد الإجادة ، وظهرت آثارهم واضحة فيما نقلته المصادر الموثقة التى تحدثت عن أهل الإسلام الأوائل .

(٥) الرعى ونقل الماء من العيون والآبار : كان الكثيرون من أهل الصُفَّة يرعون إبل الصدقة، كما يرعون أغنامها ، بل كانت أنعام الصدقة تنال عنايتهم،

الكسل: هو ميراث الشبع فإن النفس إذا شبعت قويت وإذا قويت أخذت حظها ، فإذا أخذت حظها غابت القلب بوصولها إلى حظها ومداواتها : التجويع ، فإنها إذا جاعت عدمت حظها، وإذا عدمت حظها ضعفت ، وإذا ضعفت غلب عليها القلب فحملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل لذلك قال النبي ﷺ : " ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ..". (راجع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي - عيوب النفس ومداواتها) ص ٢٧ تحقيق د / عبد المنعم خفاجي ، عبد العزيز شرف .

(١) الأستاذ / زكى محمد الزاكى ، النفس البشرية واتجاهاتها ، ص ٣١ (الدار المحمدية ط (١) ١٣٣٥هـ) .

(٢) الدكتور / محمد عبد العظيم عبد الوهاب الأطرش . من ثمرات النخيل ص ٧١ طبعة مطبعة فؤاد الأول ١٩٣٥ هـ) .

(٣) لا يحسب ذلك عليهم من باب الاستهزاء لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم تكن لهم فيه قدم راسخة .

(٤) العلامة أبو نعيم - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج (١) ص ١٢٧ .
وذكرت رواية أخرى تقول : " لرجل عبد الله أثقل من أحدكم عند الله " ، ولا منافة بين الروايتين أن كل منهما كان له وقعا خاص وحادثة مستقلة .

لأنهم كانوا الأقدر على رعايتها ، فعن رافع بن خديج ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " العامل على الصدقة بالحق لوجه الله كالغازى، فى سبيل الله، حتى يرجع إلى أهله " (١).

كما كانت إبل الصدقة هى الأخرى لها بعض الخواص التى لا تتوفر فى غيرها، فقد روى البخارى فى صحيحه أن قوما جدروا (٢) فأتوا رسول الله ﷺ يسألونه شفاء ما هم فيه، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بإبل الصدقة ثم قال : عليكم بألبانها فاشربوها وأبوالها (٣) فتداوى بها، فلما فهموا أغناهم الله ومما هم فيه من مرض برأهم (٤).

وكانت عملية العناية بأنعام الصدقة تنال اهتمام أهل الصُفَّة على جوانب مختلفة، ولذلك كانوا يقومون بها على أتم الوجوه ، وفى نفس الوقت صار ذلك العمل غاية عظمى، وقيمة كبرى لأهل الصُفَّة عمومًا ورعاة إبل الصدقة خصوصًا.

كما كان بعض أهل الصُفَّة يقومون بجذب الماء من الآبار والعيون، لسقى النخيل، وسقى العواقل والقواعد من أصحاب البيوت الذين أعجزتهم ظروفهم عن السقى لأنفسهم أو غيرهم .

وكان يتم ذلك كله عن طريق الإكراء (٥) الذى يعود فى محصلته النهائية إلى راعى دار الصُفَّة والمشرف على أهلها لأنه المسئول عن ذلك كله .

ومن ثم فما كان واحد منهم ليختزن لنفسه شيئاً من أجره ، وإنما كان الكل يعمل لصالح الكل، وهو ما يعرف بالتكافل الإجتماعى فى الإسلام (٦).

وما من شك فى أن أهل الصُفَّة تقبلوا الأعمال البدنية جميعها كل بقدر طاقته وقدراته وامكاناته الطبيعية ، وتيسير الله له . امتثالاً لقوله ﷺ : " عليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا " (٧).وأنهم كانوا يقومون بذلك عن طيب خاطر، إرضاء لله رب العالمين ، لذا نرى أعمالهم متعددة متنوعة ، فقد نهضوا لمزاولة كافة الأعمال المشروعة، تلبية لاحتياجات المجتمع فى مناحى الحياة المختلفة.

---

(١) الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى (ت ٧٥٢هـ) مختصر الترغيب والترهيب ، ص ٦١ (دار الدعوة ، الإسكندرية – من ذخائر تراثنا).

(٢) أصيبوا بمرض جلدى يعرف بالجديرى وأن هذا المرض إذا أصاب أحد وتمكن منه وقع الهلاك له.

(٣) وقد كان التداوى بأبوال الآبل هنا خصوصه معينة لذات الإبل ولهؤلاء القوم أيضًا .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخارى ج ٦ ، ص ٢٤٩٥ حديث ٦٤١٩ .

(٥) وهو العمل بأجرة محددة تتم فى مقابلة القيام بعمل محدد ومنه إكراء الأجير ، وإكراء الدار ونحوه . المعجم الوجيز مادة (أكرى) ص ٥٣٣ .

(٦) لمزيد من التفاصيل راجع الدكتور / عبد العال أحمد عبد العال ، التكافل الإجتماعى فى القرآن والسنة – رسالة دكتوراه بقسم التفسير ، كلية أصول الدين القاهرة عام ١٩٧٠.

(٧) الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير المجلد الثانى ، ص ١٧٦ حديث رقم ٥٥٥٨ (طبعة دار الفكر بيروت الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م) .

٦ ± **التجارة** : لما كان البعض من أهل الصُفَّة قد عمل بالتجارة قبل الإسلام، أو قبل الهجرة إلى دار الهجرة ، فقد حاول كل منهم استغلال قدراته العقلية في القيام بهذا الجانب ، ومن ثم تعددت صور التجارة فيما بينهم ، فمنهم من حمل على كتفيه بعض القذ [١] ، ثم ذهب للأسواق يغشاها فيبيع فيها ، ويشترى منها طبقًا، لتوجيهات المشرف على الصُفَّة، يدل على ذلك ما أثر أن ابن مسعود ﷺ حمل أثواباً فاضت عن أهل الصُفَّة، ثم ذهب بها متاجرًا فيها . فلما عاد من تجارته أودع ما حمل بين يدى عمار بن ياسر[٢] فحاسبه على الأصل، وأدخل ما زاد على ربح مال المسلمين [٣].

كما كان بعضهم يتاجر فى أوبار، وأصواف إبل الصدقة، وأغنامها بأمر من القيم عليها، طبقًا لتوجيهات رسول الله ﷺ، بحيث لا يظهر بين المسلمين من يحمل على غيره ، ولا يحمل هو غيره، لأن المسلم دائما يسعى إلى رضوان الله ، ويحرص على طاعته ، والله عز وجل يعطى الكل حسب توفيق الله ، وهو سائلهم وهم لا يسألونه ، لأنهم ينظرون إلى وجهه لا يرجون سواه، فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رجل يا رسول الله : إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى : فلم يرد عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [٤].

أجل لم يكن أهل الصُفَّة يقفون عند تجارة بعينها، أو يحبسون أنفسهم في نوع من التجارة لا يحيدون عنه ، وإنما كانوا ينوعون فيها بقدر توفيق الله لهم لأنه غايتهم، وهم خدم عِندَه ، ذكروه فذكرهم: قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾[٥].

---

(١) القذ : عبارة عن فتلات أو خيط كان يتم غزلها يدويًا ثم يلتئم بعضها مع بعض فى خشبة كبيرة بحيث تصير تلك الخيوط متماسكة كأنه ثوب قماش . والذى يقوم بذلك يسمى (قاز) أما الفعل نفسه فيسمى القذ والعائلة أوالجماعة التى تقوم بهذا العمل يطلق عليها اسم القزازين.

(٢) وهو عمار بن يسار أبو اليقظان : أسلم قديمًا وكان من المستضعفين الذين يعذَّبون بمكة ليرجعوا عن دينهم . أحرقه المشركون بالنار . وكان رسول الله ﷺ يمر به ويُمر يده على رأسه ويقول : يا نار كونى بردًا وسلامًا على عمار كما كنت على إبراهيم – عليه السلام ، وروى على بن أبى طالب أنه جاء عمار يستأذن على النبى ﷺ فقال : ائذنوا له ، مرحبًا بالطيب المطيب ، كما قال فيه أيضًا : إن عمارًا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه – راجع العلامة أبو نعيم فى الحلية ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) الشيخ محمد بن على الطيالسى، الصوفية الأوائل، ص ٧٣ (طبعة الدار اليمنية ج(١)– ١٣١١ هـ).

(٤) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين – ج ٤ ص ٦٥ الحديث ٧٩٣٩ – والعلامة المنذرى الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣١ الحديث ٣٢ ، ج ٢ ص ١٩٥ الحديث ٢٧٨ . والآية (١١٠) سورة الكهف .

(٥) سورة الرعد الآية (٢٨) .

ولأنهم قد شغلوا أنفسهم بذكر مولاهم فإنه وحده قد هداهم، **يقول العلامة القرطبى:** " يهدى الله الذين آمنوا فتطمئن قلوبهم بذكره [١] حيث تستكن ، وتستأنس بتوحيد الله ، فتطمئن ما دام ذكر الله باللسان والجنان، والجوارح والأبدان ، حتى يطغى ذلك على البيان " [٢].

ويقول الشيخ السامانى : أن ذكر الله هو التجارة الرابحة ؛ لأنه يكون فى الأعمال كلها، وكلما كان قلب المؤمن متعلقًا بالله وقع له الفضل والإنعام ، ومن ثم يتم له الوجل بذكر عدله، وانتقامه، وقضائه ، كما يقع له تأمل آياته ، ومعرفة كمال قدرته، عن بصيرة، وهو حال أهل الصُفَّة، ومن حذا حذوهم [٣].

وفوق ذلك فإن تجارة أهل الصُفَّة إنما كانت قائمة على قواعد ثابتة عمادها ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[٤].

ربما يقال لو أنهم كانوا أصحاب تجارة ما كانوا فقراء ، وإلا فأين هى الأموال التى تاجروا فيها ؟

والجواب : أنهم أنما كانوا يتاجرون فى أموال الصدقة ، ويعملون فى خدمة بيت مال المسلمين [٥] ، كما أن بعضهم عمل فى جمع الزكاة ، فحصل له من سهمها شئ [٦] لكنه لم يأخذه لنفسه ، وإنما جعله قاسمًا مشتركا بين إخوانه من المسلمين جميعًا .

٧ ± إمامة المسلمين : كان من أهل الصُفَّة جملة فقهوا عن الله، فحفظوا كتابه الذى أنزل [٧]، كما فقهوا عن رسول الله ﷺ فحفظوا من سننه قدرًا أكبر ، فلما كان الرسول – عليه الصلاة السلام – يخرج غازيا يجعل البعض منهم إمامًا للمسلمين المتبقين فى المدينة حتى يتقدم بهم الصفوف فى الصلاة ، كالحال مع عبد

---

(١) وهذا الذكر كما يكون فى الاعتقادات يكون فى العبادات والمعاملات أيضًا ، فلا ينفصل المؤمن عن ربه بحال من الأحوال ، فلا يكون ذكر الله باللسان فقط ، وإلا كان نوع من عمل الغافلين ، لأن الذكر فى الأصل خلاف الغفلة ، والمقصود منه ذكر الله باللسان فقط ، وإلا كان نوع من عمل الغافلين ، لأن الذكر فى الأصل خلاف الغفلة والمقصود منه ذكر القلب ، فإن إنضاف إليه ذكر اللسان فهو أفضل وأكمل ، وأما ذكر اللسان وحده فقليل الجدوى ، لكن الاستدامه عليه تكون سببًا لذكر القلب – العلامة أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى – نشر المحاسن الغالية ص ٢٤٨ تحقيق الأستاذ/ إبراهيم عطوة عوض.

(٢) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن الكريم ج ٩ ص ٣١٥ .

(٣) الشيخ مختار بن نصار السامانى ، ذكر اللسان ص ٥٩ (طبعة دار المنتصر بالله تركيا – ١٣٣٧ هـ)

(٤) سورة الصف الآية (١٠) .

(٥) لأن خدمة مال المسلمين كانت واجبا شرعيا وبالتالى ، فكان رسول الله ﷺ يعين على أقوات المسلمين خزنة ومنهم أبو موسى الأشعرى ، وأبو هريرة وغيرهم .

(٦) لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ سورة التوبة الآية (٦٠).

(٧) المراد أنهم كانوا من أكثر الحافظين ، لأن القرآن الكريم لم يكن قد انتهى نزوله بعد.

الله بن أم مكتوم حيث قدم المدينة مهاجرًا بعد بدر بيسير فنزل الصُفَّة مع أهلها [١] وكان النبى يستخلفه على المدينة ليصلى بالناس فى عامة غزواته [٢].

وكانت تلك الإمامة كما تتعلق فى الصلاة، يتعلق مثلها فى العلم ، والقضاء بين الناس، إذ ليس من المعقول أن يقيم رسول الله فى الناس إمامًا فى الصلاة ، ولا يقيم بينهم من يعلمهم أمور دينهم ، أو يأخذ بأيديهم إلى ما فيه صحيح العلم ، وسليم المعرفة ، وكان أهل الصُفَّة هم من أكثر الناس استعدادًا للقيام بهذا الدور، بدليل وجود الكثرة بينهم من حملة القرآن الكريم، وحملة الحديث ، وكانوا الأقدر على القيام بهذه الأدوار فى دقة وثبات .

(٨) **الجهاد** : كان أهل الصُفَّة من أكثر الذين وهبوا أنفسهم لله ورسوله ، بدليل أن (صهيب بن سنان) – رحمه الله – السابق المهاجر ، المطعم المتاجر ، لماله يزول ، ولنفسه قتول، ولدينه عقول ، وبربه تعالى يجول ويصول ، كان الأسرع لإجابة نداء الله ورسوله [٣]. ورغم أنه صاحب مال قبل الهجرة ، بل عد من أكثر أصحاب الأموال ، إلا أنه بعد الهجرة منعته قريش ، وحالت بينه وبين الهجرة ، فترك لهم ماله وخرج مهاجرًا إلى الله ورسوله، وذلك أنه لما أقبل صهيب مهاجرًا نحو النبى ﷺ، اتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته ، وانتشل ما فى كنانته، ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أنى من أرماكم رجلاً ، وأيم الله لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم معى فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء ، افعلوا ما شئتم ، وإذ شئتم دللتكم على مالى وثيابى بمكة، وخليتم سبيلى ؟ قالوا نعم . فلما قدم على رسول الله ﷺ المدينة . قال : " ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى [٤] " ونزل قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ** ﴾ [٥].

ومن ثم باعوا دنياهم وأنفسهم لله ، فإذا أذن مؤذن الجهاد فإن هذا الآذان أول ما يطرق يطرق آذان أهل الصُفَّة ، لأن الآذان بالجهاد إنما يكون فى المسجد، وهم مقيمون به ، فكانوا الأسرع إلى تلبية النداء، وحمل السيوف على الذراع . فهم الأقرب من رسول الله ﷺ فى إقامته ، والأقرب فى تلبية ندائه الشريف امتثالاً لقوله

---

(١) العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . ج ٢ ص ٤ .

(٢) العلامة محمد بن حبان أبو حاتم التميمى البستى الثقات ج (٣) ص ٢١٤ ومشاهير علماء الأمصار ج (١) ص ١٦ ترجمة رقم (٥٣) .

(٣) العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ١ ص ١٥١ .

(٤) وهذه كنيته التى كناه بها رسول الله ﷺ – رغم أنه لم يكن له ولد .

(٥) العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ١ ص ١٥١ – ١٥٢ . والآية رقم (٢٠٧) من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (١).

ويقال : العابدون أحياهم بطاعته، بعد ما أفناهم عن مخالفته ، وأما العالمون فأحياهم بدلائل ربوبيته ، بعد ما أفناهم عن الجهل وظلمته . وأما المؤمنون فأحياهم بنور موافقته، بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم . وأما الموحدون فأحياهم بنور توحيده، بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غير (٢).

وكان أهل الصُفَّة يقاسمون رسول الله ﷺ نوع ما يأكل، فقد ورد فى الأثر عن عبد الرحمن بن حابس عن أبيه أن عائشة (٣) – رضى الله عنها– قالت: " فى عام جاع الناس ، أراد النبى أن يطعم الغنى، والفقير، وإنا كنا نرفع الكراع بعد خمس عشرة وما شبع آل محمد من خبز بر مأدوم ثلاثًا حتى لحق بالله عز وجل "(٤).

ولما كان أهل الصُفَّة يشاركون رسول الله ﷺ نوع غذائه ، فكانوا أيضًا يتسارعون إلى مشاركته الجهاد حتى أن بعضهم كان يستئذن فى الجهاد رغم عدم قدرته عليه ، وإنما كان يطمع فى القيام بالجهاد لما له من كبير الأجر، وعظيم الثواب، ورفيع الدرجة عند الله (٥) .

يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦).

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٤) وفى الآية إشارة لطيفة إلى أن الجهاد من الأعمال التى تورث الحياة الأبدية فيكون سبب فى النعيم السرمدى – راجع العلامة جلال الدين المحلى – الإمام جلال الدين السيوطى ، تفسير الجلالين ص ٢٣٠.

(٢) الإمام القشيرى – لطائف الإشارات ص٦١٥. تحقيق الدكتور/ إبراهيم بسيونى.

(٣) عائشة أم المؤمنين ﷺ زوج رسول الله ﷺ وأحب نسائه إلى قلبه . والدها أبو بكر الصديق ﷺ، وأمها أم رومان بنت عامر ، قال عنها رسول الله ﷺ من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان . كانت ولادة السيدة عائشة بمكة المكرمة ، فقد عاشت أحداث الدعوة الأولى مع أبيها ، خطبها رسول الله ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين وهى بنت ست سنين وتزوجها فى المدينة بعد بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . كانت حاملة لواء العلم والمعرفة وعلى قدر كبير بفقه الإسلام ومبادئه .
راجع د . عبد الرحمن عميرة ، رجال ونساء أنزل فيهم قرآنا ج (٩) ص ٢٩ وما بعدها (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبوعات مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م) .

(٤) الإمام البخارى ، صحيح البخارى ، ج ٥ ص ٢٠٧٢ – باب القديد ، الحديث رقم ٥١٢٢ .

(٥) الشيخ منصور محمد البوسنى – الطريق إلى الله – ص ٧٢ (طبعة الدار اليمانية ١٩٥١م) وقد ذكر أوجه عديدة للصور الجهادية التى قام بها أهل الصُفَّة.

(٦) سورة التوبة الآية (١١١) وسبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله ﷺ اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؟ قال : " أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " ، قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟

وما جاء في الحديث الشريف عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من نفس تموت فتدخل الجنة، فتود أنها رجعت إليكم، ولها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما رأى من الثواب " [١]. وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض"[٢]. وعن سهل بن سعد ﷺ قال : "رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف عام فما سواه من المنازل "[٣].

ومن ثم يمكن القول بان أهل الصفة تنوعت أعمالهم وتقلبوا مناحى الحياة كما جاهدوا فى سبيل الله حتى صاروا أئمة للناس وهداه ، بل تركوا آثارًا جاءت فيمن أتوا بعدهم ممن اقتدى بهم ونظر إلى سيرتهم ، وكان الصوفية من أكثر الناس الذين أخذوا عنهم وقلدوهم واستشهدوا بفعالهم الحميدة ، واعتبروها بمثابة الإجماع الذى يجب أن يلى النقل كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية .

قال: (الجنة) قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت الآية . (الإمام السيوطى : لباب النقول فى أسباب النزول ، ص ٤٨٠ . بهامش كتاب تفسير الجليلين .

(١) الإمام الدارمى سنن الدارمى المجلد الثانى باب(ما يتمنى الشهيد من الرجعة إلى الدنيا) ص ٢٠٦.

(٢) الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى ، مختصر الترغيب والترهيب ص ١٠٧ .

(٣) الإمام الدارمى – سنن الدارمى ج ٢ ص ٢١١ باب فصل من رابط يومًاوليلة .

الفصل الثاني

سماتهم والآثار الناشئة عنها

تمهيد :

سلف الحديث عن الصُفَّة من حيث التسمية ، والتعريف بالمكان أو القول في أعدادهم ، وأعمالهم ، بالشكل الذى أمكننى الوقوف عليه ، لكن أهل الصُفَّة لهم ما يتميزون به عن غيرهم ، على أساس ما وقع لهم من صفاء ونقاء ، كما وقع من إصطفاء ، إذ المعروف أن الصَّفْوةُ " هم المتصفون بالصفاء عن كدر الغيرية" [١]. والصَّفْوَة من كل شيء أحسنه [٢]، باعتبار أنهم تخلصوا من شواغل النفس ، وهواجس الوجدان ، كما انفصلوا عن همزات الشياطين [٣] ، وما يتعلق بها ، فكانوا حزب الله . قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ الا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٤] .

ومن ثم كانت لهم سمات عديدة ، باعتبار أن السمة هى ما تميز الشخص عن غيره ، أو تميز الموضوع المطروح عن سواه ، سواء أكان التميز راجعًا لما هو متعلق بالذاتيات ، أم ما هو متعلق بالعرضيات [٥] .

ونظرًا لأن أهل الصُفَّة كانوا ذات سمات متعددة ، تخرج كلها من أصل واحد، فقد كانوا بمثابة الشجرة، ذات الجذور الثابتة، التى تنتج أغصانا متباعدة، لكنها تتجه إلى غاية واحدة، وكأنى بهم والكلمة الطيبة التى ضرب الله بها المثل فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٦].

فالكلمة الطيبة التى يضرب بها المثل الذى أورده من باب التشبيه الذى يقوم عليه المثل ، ويكون المورد والمضرب متلاقيين فى أن الكلمة الطيبة هى دعوة الإسلام ، وهى ذاتها الشجرة الطيبة ، أما فروعها فقد كان أهل الصفة أحد

---

(١) العلامة السيد الشريف الجرجانى – التعريفات – باب الصاد ص ١١٧ (طبعة الحلبى ١٣٥٩ــ ١٩٣٨م) .

(٢) المعجم الوجيز باب صفا ص ٣٦٧.

(٣) وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من همزات الشياطين قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ المؤمنون آية (٢٧) .

(٤) سورة المجادلة الآية (٢٢) .

(٥) الفرق بين المميز الذاتى والعرضى ، أن الذاتى يكون ثابتا ، أما العرضى فإنه يكون متغيرًا بناء على أن الذاتى ما يقوم بنفسه أما العرضى فهو ما يلحق بغيره ومن ثم كان العرضى أنواعًا منه ما هو قارى الذات ومنه ما هو غير قارى الذات – حاشية الباجورى على شرح السلم ص ١٤ . ط الحلبى الأخيرة ١٩٣٨م.

(٦) سورة إبراهيم الآية (٢٤ – ٢٥) .

الأغصان التى تمثل غادة من غادات هذه الكاعبة اللاتى لا أتراب لها .

ومن ثم فسأعرض لأبرز السمات ، التى كانت لهم ، باعتبار أن هذه السمات ، هى التى تفضى إلى بيان العلاقة الوطيدة بين هؤلاء القوم والتصوف الإسلامى ، كما أن سماتهم تلك مما استفاد به الصوفية فيما بعد ، وطبقوها على أنها سلوك عملى يجب الاستمساك به ، بل حاولوا أن يكونوا كأهل الصُفَّة فى أغلب أحوالهم ، وأكثر ما يميزهم عن غيرهم وذلك على النحو التالي : .

أولاً: الإخلاص لله مع الانقطاع له

عرفنا مما سبق أن أهل الصُفَّة تخلوا عن أموالهم ، وبنيهم وأزواجهم وبيوتهم ، وانحازوا لربهم ، لقد نفضوا من قلوبهم كل مظاهر الترف والنعيم الزائل ، حتى يقيموا لأنفسهم عند ربهم بناء عاليا أوكأنهم يتلمسون قول الله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [١] .

وقد ارتبطت أسماؤهم بصفاء أسرارهم ، وبقاء آثارهم ، عالية التركيز، عظيمة الشأن فى الصوفية الأوائل والأواخر أيضًا ، لأنهم أخلصوا القلب ولوجه الله ثم انقطعوا له ، وظل ذلك ديدنهم العام ، وقاعدتهم الثابتة ، لأن مصدر الجميع واحد، هو كتاب الله، وسنة رسول الله .

وسوف أتناول هاتين السمتين على نحو من البسط يستبين من خلاله ، مدى اتصافهم بهما ، ثم آثارهم على التصوف الأصيل ، ولا يغربن عن دراس أنى لن أنهض إلا للتصوف القائم على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ طبقا لما أثر عن الصوفية أنفسهم ، من قولهم : " إن علمنا مقيد بالكتاب والسنة ، فإذا خالف الكتاب أو السنة ، فاطرحوه ولا تنظروا فيه " [٢] . وكان الإمام الشافعى ﷺ يقول إذا نسب الرأى أو القول إلىّ فاعرضوه ، على كتاب الله وسنة رسوله، فإن وافقهما فاقبلوه، وإلا فاطرحوه ، واضربوا به عرض الحائط [٣] .

السمة الأولى إخلاص القلب والوجه الله :

أ – عند أهل الصُفَّة :

أهل الصُفَّة لما كانوا من أجلاء الصحابة، وكان داعيهم الأول هو حب الله، فقد

---

(١) سورة التوبة الآية (١٠٩) .

(٢) الشيخ محمد بن على بن الحسينى الرضوان – الصوفية الأوائل والتصوف الحقيقى ص ٢١ (طبعة دار مربان ١٣٣٥هـ). وراجع للشيخ محمود زين الدين السمرائى – التصوف الإسلامى ص ١٣ (طبعة الدار القومية ١٣٢٨هـ). وقد أثرى هذا القول عن كثير من الصوفية الأوائل، وقد نقل ذلك المعنى كل من القشيرى فى الرسالة، والسهروردى فى عوارف المعارف، وغيرهم.

(٣) المستشار محمد عزب النجومى الشافعى وفقهه ص٧٣ دار المهند بالمغرب ط (١) سنة ١٩٦٣م) .

تخلصوا من الأكدار، كما نفضوا أيديهم عنْ الأغيار فتعلقت قلوبهم بالواحد القهار.

ودليل ذلك أن الصديق ﷺ كان موسوعة تتحرك ، ومالاً تغطى جنباته صحراء مكة القاحلة ، فلما كان هو أول رجل دخل الإسلام أخلص قلبه لله، وتخلص من كل ما سواه ، حتى إنه ترك داره وماله وهاجر مع رسول الله ﷺ، وهو على يقين من أن قريشًا لن تسكت ، ومع هذا كان يمشى مرة أمام رسول الله ﷺ وأخرى خلفه، ثم تارة عن يمينه، وأخرى عن شماله ثم قال قولته المشهورة : " يا رسول الله إن مت أنا ففرد ، أما أن أصبت أنت فقد أصيب الدين " (١) .

وإذا أخلص المرء قلبه ووجهه لله، هانت عليه عوارض الدنيا ، وتضاءلت كل متعها ، وتبدلت لذائذها، حتى إنه لو قام بها فإن هذا القيام لا يجاوز سوى الحواس، أما القلب فإنه يكون مشغولا بالله عز وجل ، ومتى استنار القلب بنور الله لم يسمح لشاغل أن يقطع عليه مدد ذلك النور، لأنه يرى بنور الله ، وفى الحديث : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله " (٢) .

والملفت للنظر أن أهل الصُفَّة جميعا كانوا مخلصى القلب لله ، بدليل أن سيطرتهم على جوارحهم كانت كاملة ، كما أن حرصهم على الآخرة فاق كل مظاهر التعلق بمتع الحياة الدنيا ، وفوق ذلك فقد كانوا على شرع الله قائمين، وتحت أمره منتظرين، ولرضوانه – عز وجل – آملين فإذا ما نادى منادى الجهاد كانوا هم أول المجيبين .

كما كانوا درة لامعة فى جبين الدهر حيث عرف فيهم (البكائون) الذين أنزل الله فيهم قرآنا يتلى إلى يوم الدين : قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٣) .

ب – أثر ذلك على الصوفية :

أما عن أثر ذلك على الصوفية ، فكثيرٌ جدًا بالنسبة لمظاهره التى لم تنقطع أما لماذا ؟ فلأن الصوفى هو من صافى الله وصافاه مولاه ، ولأنه فى كل الأحوال هو الأخذ بذمام نفسه إلى حيث يرضى مولاه ، وبناء عليه فإن الأصول العامة

---

(١) الشيخ محمد بن على النجدى – مآثر الصديق – ص ٣١ (طبعة الدار الرحمانية ١٣٣١هـ) ونفس الفكرة كررها كثيرون ، راجع الدكتور / عبد الفتاح شحاته – الخلفاء الراشدون – ج ١ ص ١٨١ (دار الطباعة الفنية بالقاهرة ١٩٧٢م) .

(٢) أخرجه الترمذى – الجامع الصحيح ج ٥ ص ٢٩٨ حديث ١٢٧ تحقيق إبراهيم عطوه عوض (مطبعة الحلبى) .

(٣) سورة التوبة الآية (٩١) وقد نزلت هذه الآية فى جماعة من أهل الصفة حين أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة منهم فقالوا : يا رسول الله احملنا فقال : " والله لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء ، وعزَّ عليهم أن يحبسوا عن الجهاد إما لضعف جسدى فيهم أو لعدم وجود النفقة ولا المحمل ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . الإمام جلال الدين السيوطى – لباب النقول فى أسباب النزول ص ٤٦٨ .

للتصوف الإسلامى تؤكد كثرة هذه المظاهر المتعلقة بذات الجانب ، يعبر عن ذلك قول الشبلى[١] مخاطبا مولاه :

كل بيت أنت ساكنه ∴ غير محتاج إلى السرُوج
وجهك المأمول حجتنا ∴ يوم يأتى الناس بالحجج[٢]

كما أن الصوفى يعمل على التحقق بقول رسول الله ﷺ : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " [٣] .

ولما كان الصوفى بهذه المثابه فقد عرفه العلامة السهروردى بأنه " من يتعلق بالله بحيث لا يكون له شاغل سواه ، فإن الصوفى يترك الأشياء لا للأعواض [٤] الموعودة [٥] ، بل للأحوال الموجودة ، فهو ابن وقته، سائرٌ فى الأشياء بإرادة مولاه لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ، ولا فى صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوفقه الحق فيه " [٦] .

ولما كان الصوفى هو الذى اختاره الله لنفسه فصافاه – على ما هى عبارة القشيرى – وعن رغبات نفسه براء ، ولم يرد إلى عمل وتكلف ، فكأن الله كافاه ، ومن قبل ربه جاءت المجازاة [٧] .

---

(١) الشبلى : هو أبو بكر بن دلف بن جحدر ، ينسب على قرية شبلة من خرسان ، صحب الجنيد وارتبط به ، من أقواله : لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء . المهم هو موافقة الله فى أوامر ونواهيه ، وكان يرى الصوفى هو الفقير لأنه فى كل أوقاته وأحواله فقير إلى الله تعالى، أما الإفلاس فهو الاستئناس بالناس .
راجع الدكتور / عبد المنعم الحفنى الموسوعة الصوفية ص ٢٣٦ : ٢٤٠ .

(٢) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ص ٢٣٥ وبهامشها شرح الشيخ زكريا الأنصارى (ط محمد على صبيح) .

(٣) وقد روى الشراح أن أم المؤمنين عائشة ، أو بعض أزواج رسول الله ﷺ قلن يا رسول الله إنا لنكره الموت قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بشر برضوان الله، وكرامته، فليس شىء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وأن الكافر إذا حضر ، بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شىء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه . الإمام البخارى صحيح البخارى ج (٥) ص ٢٣٨ باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . والحديث رقم ٦١٤٢ . وهو مروى عن عباده ابن الصامت ﷺ .

(٤) نظرية الأعواض فى الفكر الإسلامى واسعة، شغل المتكلمون بها أنفسهم وقت طويلا، وما تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة ، ويمكن الرجوع إليها لدى الإمام الغزالى فى كتابه القيم الاقتصاد فى الاعتقاد ، القطب الثالث الدعوى ...

(٥) يقصد بها نعيم الجنة وما يتبعه ، فالصوفى لا يسعى إليها لأنه على يقين من أنها تقع تفضلاً من الله عز وجل .

(٦) العلامة أبو حفص السمهروردى – عوارف المعارف ص ٥٦ (طبعة الدار القومية بالقاهرة ١٩٧٣م) وفى العبارة نوعًا من الاختصار اليسير .

(٧) الإمام أبو القاسم القشيرى – الرسالة القشيرية – ج (١) ص ١٨٦ تحقيق الدكتور / عبدا الحليم محمود ، والدكتور / محمود الشريف (طبعة حسان بالقاهرة ١٩٦٤م) .

ومن ثم فإن الصوفى يقتدى بأهل الصُفَّة ، فى إخلاء قلبه مما سوى الله، وينقى سريرته ، بحيث لا يكون هناك من شاغل، كما يجعل أخلاقه حسب أرادة ربه ، وهونفس ما كان عليه أهل الصُفَّة فى هذا الجانب ، فالقدوة والمثل فيما ذهب إليه هؤلاء هم أهل الصُفَّة وإلى ذلك أشار الشيخ النجيبى[١] بقوله :

فقادة الصوفى أهل الصفة فى زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضياف الله والإسلام وجلساء سيد الأنام[٢]

ولما كان الصوفية أصحاب أحوال فإنهم يلزمون أنفسهم أبواب العلوم والمعارف مبتدئين بأسباب العلم [٣]، وحفظ مسائلة، ومجالسة العلماء، وإتباع الفضلاء[٤] .

وبمراعاة هذا الجانب من طلب العلم لدى الصوفية يظهر تأثرهم بأهل الصُفَّة ، فى أخذهم العلم عن رسول الله مباشرة، سواء مما يوحى إليه من القرآن الكريم عن طريق جبريل الأمين ، أم كان من قول وعمل الرسول ﷺ ، فقد كانوا الأقرب دائما لنزول القرآن ولتعليم السنة ، ومثل الحال مع سيدنا أبي هريرة ﷺ حيث كان يسعى خلف رسول الله ﷺ، يأخذ بأسباب طلب العلم ، حتى قال الإمام البخارى أنه روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظ من روى الحديث فى عصره [٥].

ومن ثم فإن طلب هذا العلم بالله ، وحفظ مسائله التى يقوم عليها الصوفية ، إنما تجعلهم يعرفون الله – عز وجل – معرفة يقينية ، وبناء عليه، فإنهم يُسلمون قيادتهم له، ويصفون إليه، ويخلصون فى كل أمر حتى يكون الله وحده هو غايتهم.

يقول الشيخ عماد الدين الأموى : إن الصوفية هم الذين ورثوا علوم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، واقتفوا آثارهم ، وهل خرج أهل الصفة عن كونهم من أتباع خاتم الأنبياء والمرسلين [٦] .

ويقرر العلامة الشيرازى : أن الصوفى هو من اختاره الله لنفسه فصافاه ولم

---

(١) هو الشيخ الفقيه الصالح الولى الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف النجيبى ، المعروف بابن البنا (السرقسطي) بضم القاف نسبه إلى سرقط ، كان أصله منها ، ثم استقر بفاس ، وبها توفى وقد عد من عجائب مدينة فاس بسبب كتابه هذا المسمى (المباحث الأصلية). ابن عجيبة الحسنى ، الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٢ .

(٢) العلامة ابن عجيبة الحسنى، الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٤٧.

(٣) يقصد هنا الأسباب الكسبية لأن المعارف قد تكون (أ) فطرية (ب) كسبية (ج) إلهامية (د) معرفة وحيية .

(٤) لطالب المزيد الرجوع إلى الإمام القشيرى – طريق الله تعالى ص ٥٣ وما بعدها تحقيق الدكتور/ إبراهيم بسيونى ، محمد غانم (الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م).

(٥) الإمام ابن حجر – الإصابة فى تمييز الصحابة – القسم الأول – باب من ذكر له صحبة وبيان ذلك ص ٢٢٦ – ٢٤٤ رقم ١٠٦٧٤.

(٦) العلامة عماد الدين بن محمد الأموى – حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب ج ١ ص ٢٦٤ بهامش قوت القلوب (المطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣١٨ هـ.

يردده إلى شهوات نفسه ، وأسلم وجهه وقلبه لله ، ومن ثم فمنهم مجتهد ، وزاهد ، وعابد ، وطائف ، وراجى ، وصابر ، وراضى ، ومتوكل، ومحب، وفان ، وواجد، ولهم أحوال يكثر تعددها [١] .

وفى تقديرى أن إخلاص الوجه لله، وإفراغ القلب مما سواه ، وإن كان السمة الأولى من سمات أهل الصُفَّة، فإنه أيضا سمة بارزة من سمات الصوفية ، والقواسم المشتركة بينهما واحدة ، وقد عبر شيخ الإسلام العز بن عبد السلام عن ذلك حين قال: " ما بالك بقلب قطعت مادته عما سوى الله تعالى ، وجعل غذاؤه ذكر الله سبحانه، وشرابه حب الله تعالى ، وحركته به سبحانه وقيامه لله جل شأنه ، وفنى وجوده ببقاء الله تعالى ، فاستحال تقدير البين فى البين، لأنه لم يبق له أثر ولا عين، وهذا كله مبنين على أصلين مخلصين من قوله تعالى: ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ [٢] .

وقد أفاض الصوفية فى الحديث عن المحبة فجعلوها ثلاثة أقسام:

الأول : المحبة الإنسانية وهى على نوعين : روحانية ونفسانية : متمثلة فى العلوم العقلية ، وأفعال الخير .

الثانى : المحبة الإيمانية : وهى نتائج نور الإيمان، فمن ازداد من نور الإيمان، ازدادت محبته .

والثالث : المحبة الربانية : وهى صفة الله تعالى، المنعكسة فى قلوب المحبوبين المحبين عند قوله تعالى : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ .

وعلامة المحبة فى الظاهر، متابعة الرسول ﷺ فى ملازمة الفرائض، ومداومة النوافل، وعلامتها فى الباطن أن لا يؤثر على الله غير الله، ولا يكون متولى أمره إلا الله ، والله غالب على أمره . والتفاوت بين القوم فى المحبة، على قدر العناية من الله تعالى وكثرة الرعاية من العبد [٣] .

وأهل الصُفَّة من خير من تمثل فيهم هذا المقام، بدليل أنهم أحبوا الله فكان ذكره

---

(١) الإمام أبو القاسم القشيرى ، الرسالة القشيرية ج (١) ص ١٨٧ وراجع أيضًا الشيخ محمد عبد الكريم – نظرات فى التصوف الإسلامى – التعريف والنشأة ص ٣٥ (طبعة الدار الملكية ١٩٢٢) .

(٢) شيخ الإسلام / العز بن عبد السلام –كتاب زبد خلاصة التصوف – المسمى بحل الرموز ص ٣٠ تحقيق الدكتور / طه عبد الرؤوف سعد (مكتبة العلم والإيمان ١٩٥٥م) والآية (٥٤) من سورة المائدة . وقال الرسول ﷺ هم قوم هذا ، وأشار إلى ابى موسى الأشعرى ، ومحبة العبد لله – سبحانه – حالة لطيفة يجدها فى قلبه، وتحمله الحالة على إيثار موافقة أمره ، وترك حظوظ نفسه ، وإيثار حقوقه – سبحانه – بكل وجه . ويقال المحبة قضية توجب المحبة ، فمحبة الحق أوجبت محبة العبد ، ولولا أنه يحبهم لما أحبوه . راجع/ العلامة جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى، تفسير الجليلين ص ١٤٧ . وكذلك الإمام القشيرى لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٤٣٢، وإلى قريب من ذات المعنى ذهب.

(٣) العلامة أبو بكر عبد الله شاهاور الرازى – منارات السائرين ومقامات الطائرين. ص ٤٦٦ – ٤٦٧ .

– سبحانه وتعالى – وهو الغالب على قلوبهم ، المستولى على همومهم وعقولهم ، وطاعة رسوله ﷺ هى دأبهم وعملهم . وليس هذا بغريب ، فهذا حال المحبين ، وقد عبر عن ذلك بعضهم بقوله : " لا أبالى حين أحببت الله عز وجل، على أى حال أمسيت وأصبحت " (١) .

والذى يغلب على تقديرى هو أن الصوفية حاولوا أن يكون هذا الجانب قائمًا على القرآن والسنة، والتماس الأسباب والوسائل من خلال ما تهدى إليه النصوص، وما يدل عليه فعل أهل الصلاح ، لأن تربية النفس حتى تبلغ فى مقام الإخلاص (٢)، درجة عالية، تحتاج مجهودات متواصلة كما تحتاج ممارسة عملية يقوم بها كل فرد على حدا ، فليس الأمر قائما على التقليد الجماعى، أو المظاهر الخارجية : فعن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الإخلاص ما هو ؟ قال ﷺ " سألت جبريل عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال: سر من سرى (٣) استودعته قلب من أحببت من عبادى " (٤) .

بل إن معرفة الله تجعل الحب له حبا حقيقيا، يقوم على العلم به علماً لا يدانيه شىء من الشك ، أو يداخله لون من ألوان الريب ، ومن ثم امتدح الله أهل العلم به، وبين أنهم أهل الخشية منه ، والحب له، فقال جل شأنه: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ (٥) .

ويبدو لى أن أثر إخلاص القلب ، والوجه لله ، الذى كان عليه أهل الصفة ، وأمسك به الصوفية ، قد كانت له آثار كثيرة فى حياة هؤلاء أولئك كما تحولت هذه الآثار إلى جوانب عملية، على أساس أن من أخلص لله وترك ما سواه، تحول من عبدٍ عادى إلى عبدٍ يبلغ مرتبة الولى . وفى الحديث يقول رب العزة : " **عبدى أطعنى تكن عبدًا ربانيا تقول للشىء كن فيكون** " (٦) .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله تبارك وتعالى قال : من عاد

---

(١) الإمام العلامة / عبد الوهاب الشعرانى (ت ٩٧٣) لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار – المشهور بـ الطبقات الكبرى ج (١) ص ٨٣ تحقيق عبد الرحمن حسن محمود (مكتبة الآداب ج (١) ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م) . والقول منسوب لـ (عامر بن عبد الله بن قيس) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .سورة البينة الآية (٥) وقال رسول الله ﷺ : " من أخلص لله تعالى أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " .

(٣) فهو سر بين العبد وبين الله تعالى، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله . السيد الشريف الجرجانى ، التعريفات ص ٨ .

(٤) العلامة أبو شجاع الديلمى الهمذانى (ت ٥٥٩هـ) – الفردوس بماثور الخطاب ج ٣ ص ١٨٧ (دار الكتب العلمية بيروت ط (١) ١٩٨٦م) تحقيق السعيد بن بسيونى زغلول .

(٥) سورة فاطر الآية (٢٨) .

(٦) العلامة الشيخ محمد أبو البركات الأسنوى – الأحاديث القدسية جمع وتحقيق – باب العين ص ١١٧ .

لى وليا فقد أذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحببه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده الذى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، وإن استعاذنى أعذته ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره إساءته " (١) .

فالصادقون فى إخلاص القلب لله، وإخلائه مما سواه، هم عمال الله عز وجل، وهم أولياء الله عز وجل، السائرون إليه فى صدق ، وإخلاص ، لأنهم يقولون نسير إلى الله لتصل إليه ، قلوبنا، وتكون بين يديه (٢) .

ومن هذا الأثر تتحول المجتمعات الإنسانية من القلق إلى الأمن ، ومن التنابذ والتشاقق والتصارع ، إلى التلاقى والتآلف والتآخى ، بحيث يتحقق استخلاف الله للإنسان فى الأرض على الوجه الذي شرعه الله عز وجل .

أما إذا ترك ذلك الأثر، وتحول الناس إلى أهوائهم ، وتشاعبت بهم الآراء ، وتباينت الاتجاهات ، فتنازعوا أسباب الحياة تنازع الوحوش المفترسة على جيفة فى فلاة ، وحينئذ يفتك ذو الناب والمخلب القوى بذى غير الناب، فيقع الفساد، ويتحول المجتمع من التعمير إلى التدمير ، ومن التسامح والعفو ، إلى افتعال أسباب الخلاف فيكثر الفساد فى الأرض، ولا يكون ذلك إلا بما كسبت أيدى الناس قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (٣) .

السمة الثانية : الإنقطاع إلى الله :

أ – عند أهل الصفة :

خلق الله الإنسان(٤)، وفيه مواد بعضها متآلف، وبعضها يقبل التآلف، وبعضها ينأى عن أى لون من ألوان التآلف، كما خلق الله الإنسان مكونا من جسم(٥)، وروح(٦)،

---

(١) الإمام البخارى فى صحيحه ج ٥ ص ٥٨ ح رقم ٣٤٧ ، والإمام البيهقى – سنن البيهقى الكبرى ح ٣ ص ٣٤٦ ح رقم ٦١٨٨ ، الإمام الشوكانى – قطر الولى على حديث الولى – أو ولا ية الله والطريق إليها – ص ٢٣١ تحقيق الدكتور / إبراهيم إبراهيم هلال (طبعة دار الكتب الحديثة ١٩٧٩م) .

(٢) الإمام أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى – كتاب الأكياس والمغترين ص ١٣١ تحقيق الدكتور / محمد إبراهيم الجيوشى (١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) .

(٣) سورة الروم الآية (٤١) .

(٤) حيث قال جل شأنه فى محكم كتابه الكريم : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ سورة الحشر الآية (٢٤) .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ السجدة الآية (٧) .

(٦) قال جل وعلا : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ السجدة الآية (٩) .

ونفس [١] بجانب العديد من الآلات والملكات [٢]، فإذا استطاع الإنسان الاستمساك بحبل الله المتين [٣] فإنه يتمكن من قبض زمام هذه الأمور جميعها وقتما يشاء ، فإذا تمكن من ذلك على الدوام استطاع الفصل بين متطلباتها كمخلوقات تابعة له ، وهو مسئول عنها، وبين متطلبات الخالق جل فى علاه، الذى صنعه، ويملكه وما ملك ، قال تعالى : ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٤] .

وفى الحديث الشريف:" إن الله تعالى خالق كل صانع وصنعته" [٥]

وهذا الفصل بين متطلبات المخلوقات، وأوامر الخالق يجعل المرء يقع فى دائرة الابتلاء ، فإما أن يغلب متطلبات المخلوقات، وحينئذ ينقطع إلى رغباته ، ويجرى بين شهواته فيكون كالأنعام بل أضل سبيلاً لقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [٦] .

لأنه سيكون حينئذ منقطعاً لمخلوق لا بقاء له، واقعًا تحت تأثير كائنات أو رغبات منقطعة، تردت على صاحبها، وحينئذ يكون عبدًا زلولاً لشيطانه الذى لم يفارقه حتى يرديه الهلاك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٧].

أما إذا اعتزل هذه وتلك ، وانقطع لخالقه ، بحيث لا يعبد إلا هو، ولا ينظر أحدًا سواه ، فيكون حله وترحاله فى طاعة مولاه ، وهذا الانقطاع للإله جل علاه هو الذى دلت عليه النصوص الشرعية من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِي ﴾ [٨] . وقوله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة : " عبدى خلقت الأشياء لك ، وخلقتك لى فلا تشتغل بمالك عنى ... " [٩] .

وانقطاع الإنسان لله يجعله فى مقام الإحسان دائمًا لأن مقام الإحسان يتحقق فى العبد، طبقًا لما جاء به الحديث الشريف : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم

---

(١) قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ سورة الشمس الآية (٧ – ٨).
(٢) قال عز وجل: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ سورة النمل الآية(٧٨).
(٣) قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ سورة آل عمران الآية ١٠٣.
(٤) سورة النمل الآية (٨٨) .
(٥) العلامة الحاكم النيسابورى (ت ٤٠٥) – المستدرك على الصحيحين ج ١ ص ٨٥ (دار الكتب العلمية بيروت ط (١) ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .
(٦) سورة الفرقان الآية (٤٣ – ٤٤) .
(٧) سورة الزخرف الآية (٣٦) .
(٨) سورة الذاريات الآية (٥٦) .
(٩) الشيخ محمد بن على عبد العزيز الدهشان – الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية باب العين (ص) والنفحات السلفية فى الأحاديث القدسية باب العين ص ١٣٥ ط صبيح .

تكن تراه فإنه يراك " [١] .

ثم إن الانقطاع لله ينهج بصاحبه المنهج الأمثل فى العمليات كلها . بحيث ينضبط ذلك، فى الصلاة التى يؤديها، والزكاة التى يخرجها، والصوم الذى يقوم به ، والحج الذى يسعد بقيامه فيه .

فإذا كانت هذه العمليات ابتغاء مرضاة الله فإن صاحبها يكون منقطعا إلى الله عز وجل ، لا إلى غيره، من رياء ظاهر ، أو ثناء كاذب ، أو تقوى خادعة ، يقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن رب العزة : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، تركته لشريكى " [٢] .

وبناء عليه فكل منقطع إلى الله فى عمله يظل هذا العمل قائما بأجره حتى وإن مات صاحب العمل لقوله ﷺ : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : " صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " [٣] .

والمنقطعون إلى الله، لا ينعزلون عن الناس ، إنما يساهمون فى أنماط الحياة المختلفة ، بكل ما أتوا من قوة ، شريطة أن يكون ذلك العمل قائماً فى غايته، التى هى طاعة الله عز وجل ، فإذا خرجت عن هذه الغاية إلى أخرى حبط عمل المرء وصار صاحبه من الخاسرين .

وانقطاع المرء لله فى العمليات يتوافق مع الاعتقادات ، فإذا كانت الاعتقادات تمثل الجانب النظرى فإن العمليات تكون بمثابة التطبيق العملى ومن ثم عُرف الإيمان بأنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل " .

ولا يخفى أن العمليات تتكرر فى أوقاتها، وتجىء فى حدودها وموضوعاتها، كما تتم من خلال الشروط اللازمة لها، كبرت تلك العمليات أم صغرت، تكررت فى اليوم الواحد[٤] أم

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩ ح رقم ٩ ، وأخرجه البخارى فى صحيحه ج ١ ص ٢٧ ح ٤ ص ١٧٩٣ ، وابن حبان فى صحيحه ج ١ ص ٣٩١ ، ٣٩٨ .

(٢) العلامة إسماعيل العجلونى – كشف الخفا ج ٢ ص ١٣٢ ح رقم ١٨٩٥ ، الإمام أحمد فى مسنده ح ٤ ص ١٢٥ رقم ١٧١٨٠ والعلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٥ ح رقم ٥٣ ، وأخرجه الهيثمى فى الزوائد ج١٠ ص ٢٢١ بألفاظ متقاربة .

(٣)الإمام العلامة الترمذى (ت ٢٧٩) سنن الترمذى ج ٣ ص ٦٦ (دار أحياء التراث العربى بيروت) تحقيق أحمد شاكر وآخرون .

(٤) من العمليات التى قد تتكرر فى اليوم الواحد مرات متعددة الصلاة والوضوء اللازم عنها فيقوم المسلم بهذه العلمية خمس مرات مفروضة عليه وله أن يكرر الصلاة ما شاء من عدد فى النوافل وكذلك الوضوء قد يتكرر كل صلاة سواء مفروضة أو نافلة أو كلما أحدث الإنسان فله أن يتوضأ فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : " سمعت فى الجنة خشخشة أمامى ، فقلت من هذا قالوا بلال فأخبره وقال : بم سبقتنى إلى الجنة ؟ قال يا رسول الله ما أحدثت إلا توضأت، ولا توضأت إلا رأيت أن لله تعالى على ركعتين فأصليهما " .
العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ١ ص ١٥٠ .

جاءت حولية [١] فى كل عام مرة.

فى نفس الوقت فإن المسلم لا ينظر إلى واحدة من تلك العمليات نظرة متضاءلة ، مهما كانت صغيرة فى صورتها ، ففى الحديث الشريف : " لا يحقرن أحدكم من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق " [٢] . كما أن أدنى تلك العمليات تقع فى إماطة الأذى عن الطريق ، بحيث يتم للمرء وقوع الصدقة عنه كما جاء فى الحديث الشريف : " وإماطة الأذى عن الطريق صدقة " [٣] .

فإذا نظرنا إلى أهل الصُفّة، وجدنا هذا الجانب من العمليات يتناسب تمامًا مع الاعتقادات ، وبالتالى تكون معارفهم ، واعتقاداتهم متطابقة مع سلوكياتهم ، وهو ما يؤكد ارتباط التربية، والأخلاق، بالعقيدة والسلوك لدى أهل الصُفّة " .

ب – أثر الانقطاع لله على الصوفية :

إذا نظرنا إلى هذه السمة لدى الصوفية ، وحاولنا الوقوف عليها لن نجد شيئًا من الصعوبة ، بل على العكس يظهر أن القوم قد سلكوا طريق العمل ، كما سلكوا طريق الاعتقاد ، بدليل أن الصوفية المتقدمين كانت تجرى منهم مسائل السلوك العملى نفس مجرى العقيدة الدينية ، أما لماذا ؟ فلأنهم صفوة أولياء الله ، وهم فى نفس الوقت الذين " أشهدهم الرب مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف " [٤] .

ثم إنهم حين يقومون بذلك إنما يلجؤن للمجاهدة العملية على أساس أن المجاهدة القلبية قد تمكنوا منها ، ويبقى الجانب العملى التطبيقى ، فمن لم يقبل علمه التطبيق، لم يقبل منه العلم أو العمل لقوله ﷺ " من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم [٥]، ومن لم يعمل بما علم ضاع منه الأمران " [٦] .

ويدل على ذلك ما روى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام، يا داود أعرفنى أعرفك ، واعرف نفسك ، ففكر داود ساعة ، ثم قال : إلهى عرفتك بالفردانية والقدرة والبقاء ، وعرفت نفسى بالضعف والعجز والفناء، فقال الله سبحانه – يا داود الآن عرفتنى حق المعرفة " [٧] ولم تكن معرفة داود عليه السلام – بالله رب العالمين معرفة مجردة ، وإنما كانت معرفة تصاحبها الأعمال

---

(١) يقصد بها العبادة التى يقوم بها العبد مرة واحدة فى الحول الواحد كالحج والزكاة، فكليهما يقوم به العبد مرة واحدة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الإمام الحافظ أبو داود سنن أبو داود ج ٤ ص ٣٦٤ حديث رقم ٥٢٤٣ .

(٤) العلامة القشيرى – الرسالة القشيرية ص ٤ .

(٥) وكأن العلم ناتج للعمل فمن عمل علم ومن علم ورث العلم والعمل ، فكسب الاثنان .

(٦) العلامة العجلونى كشف الخفا ج ٢ ص ٣٤٧ الحديث ٢٥٤٢ .

(٧) شيخ الإسلام العز بن عبد السلام – كتاب زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز ص٤.

المتوالية التى تؤكد صحة المعرفة ، لأن الله تعالى جعل حقيقة الإيمان أنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

والصوفية يلتزمون الشريعة والحقيقة . ولا يفصلون بينهما على أساس أن " الشريعة أمر بالتزام العبودية ، أما الحقيقة فهى مشاهدة الربوبية " [١] ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة لا تكون مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة لا تكون مقبولة أيضًا [٢] . أما لماذا ؟ " فلأن الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبد ، والحقيقة أن تشهد ، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر " [٣] .

كما أن أهل التصوف قد اشترطوا على من يدخل إليهم العلم والعمل إذ لا قيمة لعلم من غير عمل، ولا فائدة من عمل لا يرتبط بالعلم يقول صاحب المباحث الأصلية:

وشرطوا للعلوم فى إصلاحه ∴ إذ لا غنى للباب عن مفتاحه
فليس للطامع فيه مطمع ∴ ما لم تكن فيه علوم أربع
وهى علوم الذات والصفات ∴ والفقه والحديث والحالات[٤]
وهذه طريقة البرهان ∴ وهى لكل حازم يقظان[٥]

وبناء على ذلك نرى أن جماعة الصوفية قد شرطوا على كل أفرادها ضرورة تحصيل العلم الظاهر ، باعتباره مفتاح العلم الباطن ، على أساس أن الشريعة باب، والحقيقة بيت ، ولا مدخل للبيت إلا من بابه [٦] .

فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة، ومن أتى الباب بلا مفتاح فلا يطمع فى دخوله، وبالتالي فلا يطمع أحد فى علم الحقيقة ، والإطلاع على السر إلا بعد تحصيل علوم أربعة وهى:

الأول : علم الذات : ويكفيه منه أن يعتقد فيها أنها موجودة ، قديمة ، باقية، منزه عن النقائص كلها متصفة بالكمالات جميعها .

الثانى : علم الصفات : ويكفيه أن يعتقد بكون الذات العالية متصفة بالقدرة ،

---

(١) بمعنى أن رؤية العبد للربوبية بقلبه يعبر عنها بمعرفة السلوك إلى الله تعالى ، أما الحقيقة فهى دوام النظر إلى الرب ، والطريقة الصوفية هى سلوك الشريعة أى العمل بمقتضاها وسلوك الحقيقة وهى رؤية الله فى كل حين وآن .

(٢) وبهذا يتبين أن الصوفية يأخذون بالحقيقة والشريعة معًا وأن الفصل بينهما إنما هو فصل باعتبار الدراسة فقط .

(٣) العلامة القشيرى ، الرسالة القشيرية ص ٧٢.

(٤) يقصد بها الأحوال التى ترد على الصوفية والمقامات والمنتزلات والآداب والمعاملات وغير ذلك مما يختص به هؤلاء القوم.

(٥) العلامة ابن البنى السرقسطى ، المباحث الأصلية ، ص ٧٧ (طبعة عالم الفكر بالقاهرة) قدم له عبد الرحمن حسن محمود.

(٦) قال تعالى: " ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة البقرة الآية (١٨٩) .

والإرادة والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر والكلام ، وأن تكون براهينها من الكتاب والسنة، فإذا تحقق بشئ كامل من هذا رقاه إلى علم الأذواق .

الثالث: علم الفقه: ويكفيه ما يتقن به طاعته وصلاته وصيامه، وإن كان له مال يعلم ما يجب عليه، ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله بشأنه".

الرابع : علم الأحوال والمقامات ومخادع النفوس ومكايدها وما يجرى مجرى ذلك من آداب ،ومعاملات وهو علم التصوف العملى [١] .

ومن ثم بان أثر أهل الصفة في أكابر الصوفية الذين أقاموا أنفسهم على شرع الله لا ينفصلون عنه أيضاً.

ثانياً : تباين الأصول مع اتفاق الغايات

شكل اجتماع أهل الصفة فى هذا المكان ، واحة خضراء ، وحديقة فيحاء، غناء، أشجارها مختلفة الأنواع ، متباينة الأصول ، متعددة الأشكال ، كثيرة الصفات ، وافرة الغوائر، جزيلة العطاء ، لكل واحدة منها ما يميزها وهى منفردة، فلما استقت من معين واحد ، صارت مؤتلفة بعدما كانت مختلفة ، واجتمعت المميزات المنفردة فصارت جمعًا ، وحينئذ اتحدت الغايات فجاء العطاء غزيرًا مزيزًا ، دثرًا [٢].

وسوف أتحدث عن ذلك فى شىء من التفصيل على النحو التالى :

١ - الاختلاف مع الائتلاف :

أ - عند أهل الصُفَّة :

أخبرت المصادر المعتد بها ، أن أهل الصفة لم يكونوا جميعًا من أسرة واحدة، أو مجتمع واحد ، وإنما كانوا أخلاطًا شتى ، منهم العربى ، وفيهم الرومى ، وبينهم الفارسى ، وفوق ذلك يجىء حبشى ، وهؤلاء جميعًا من أعراق مختلفة فى الطبائع، والعادات، بجانب الألوان ، والألسنة ، والأشكال، واللهجات ومن كان ذلك شأنهم فالاختلاف ديدنهم ، بل يكون عادة ثابتة فيهم ، ومثلهم يقع الاختلاف بينهم من كل ناحية، ومن ثم لا يهتدون سبيلاً .

فلما أكرمهم الله بالإسلام، ذابت أوجه الاختلاف، وتوحدت الطبائع فلانت القلوب العصية ، وهدأت النفوس المفزعة، واطمأنت الوجدانات القلقة، وذلك لأنهم

---

(١) الإمام أحمد بن عجيبة – الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية – ص ٧٧ – ٧٨.

(٢)وأقصد أن عطاءهم كان كثيرًا غزيرًا، لأن الله أغزره لهم حيث لا يستطيع أحد أن يجمع تلك الوفرة فى صورة حصرية ، سواء فى بلاغة القول، أم جودة العطاء أم كثرة النفع فصار عطاؤهم غزيرًا مزيزًا ، دثرًا لا يُجمع . راجع فى هذا المعنى العلامة أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى – جواهر الألفاظ ، ص ١٣٠ تحقيق الأستاذ / محمد محى الدين عبد الحميد (دار الكتب العلمية ط (١) ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العوارض [١] وعصمهم من الافتتان من تقدم ذكرهم أسوة للعارفين من الحكماء . لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال " [٢] .

فكان اختلافهم أحد عوامل ائتلافهم، لأنهم لو كانوا جميعًا من طريق واحد لما وقع الائتلاف بينهم، لأن النفس قد جُبلت على البعد عن كل ما هو مألوف ، وطلب ما هو غير معروف، ومن ثم فلم يكن ائتلافهم قائمًا ، بل سيكون الاختلاف هو القواعد السائدة، لأن طبيعة النفس البشرية نازعة إلى ما فيه مصلحتها وحدها ، بغض النظر عن مصالح الآخرين ، ولذا وُصفت تلك النفس بأنها أمارة بالسوء، قال تعالى ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [٣] .

فلما كان أهل الصُفَّة مختلفي الجنسيات، والثقافات، واللهجات، صار كل منهم محتاجًا إلى من يسمع له ، كما هو محتاج إلى من ينقل عنه ، ومتى وجد المرء العاقل من يسمع له ، أو ينقل عنه ، فإنه يحسن إليه ، ويعطف عليه ، ويأتلف معه، وهو نوع من الإحسان وقديما قيل :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ∴ فلطالما استعبد الإنسان إحسانه

وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ : " أقربكم من مجلسى يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا ، الموطءون أكنافا الذين يألفون ، ويؤلفون " [٤] .

إذن كان أهل الصُفَّة متألفى القلوب ، متألفى العقول ، متألفى الاتجاهات ، متألفى المنهج الحياتى لأن الإيثار قد جمعهم، وخصوصية الحب في الله قد نفذت فيهم حيث قال جل شأنه : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [٥] .

وعلى الرغم من اختلاف أهل الصُفَّة – السابق ذكره – إلا أن ائتلافهم كان أعلى من كل ألوان الائتلاف ، ذلك لأن رسول الله ﷺ – خصهم بكثير عنايته ،كما شملهم عطفه ورحمته ، وجعل اختلافهم فى الأجناس يعوضه موالاته ﷺ لهم فى الأوقات والأحوال ، فربما ولاهم الرسول – عليه الصلاة والسلام – أوقاتًا ثم

---

(١)كل ما يعرض للإنسان فى مشوار حياته من مطعم ، ومشرب ، ومال ، وصحه، وولد وقديما قيل : وما المال والأهلون إلا ودائع ∴ ولا بد يومًا أن ترد الودائع

(٢)العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ج ١ ص ٣٣٧ – ٣٣٨.

(٣)سورة يوسف الآية (٥٣) .

(٤)العلامة محمد بن راشد الأزدى (ت١٥١هـ) الجامع لمعمر بن راشد ج ١١ ص ١١٤ (المكتب الإسلامى بيروت ط ٢ – ١٤٠٣هـ) .

(٥)سورة الحشر الآية (٩) .

يغشاهم فيخصهم بالسلام ، ويقول : السلام عليكم يا أهل الصُفَّة [١] : فيقولون وعليك السلام يا رسول الله فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون بخير يا رسول الله[٢]، فيقول أنتم اليوم خير من يوم يغدى على أحدكم بجفنه، ويراح عليه بأخرى، ويغدوا فى حلة ويروح فى أخرى ، وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة " فقالوا فنحن يومئذ خير نتصدق ، ونعتق. فقال رسول الله ﷺ : " لا بل أنتم اليوم خير[٣]، إنكم إذا أصبتموها تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم " [٤] .

والحديث يؤكد على أن الغيب لا يعلمه إلا الله ومن ثم فإن فكرة الصلاح أو الأصلح على المعنى الذى قال به المعتزلة طبقا لما فهمه عنهم أهل السنة يكون غير لائق، بل الأليق التمسك بأن ما قدرة الله سيكون ، والرضا بالأقدار غاية المؤمن .

فى نفس الوقت فقد كان ائتلاف أهل الصُفَّة يمثل صورة من التعاون الراقى بين الجماعة الواحدة، إذ كانوا جميعًا على قلب رجل واحد، يلبون نداء الله على مدى اليوم والليلة ، فهم بين ذاكر ،وشاكرًا وتالي للقرآن، وقائم آناء الليل ، ولأنهم ارتضوا بالله ربا، وسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولاً ، ومن ثم فقد كان فقرهم عن الدنيا وغناهم الله لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[٥].

ب ± أثر ذلك عند الصوفية :

وبالنظر إلى الصوفية يظهر الأمر على نفس المنوال ، فمنهم حاضر، وبينهم باد ، وفيهم أمى ومتعلم ، وبينهم صحيح ، وفيهم مريض ومع هذا تجدهم فى رباط واحد ، مرابطون ، متفقون على قصد واحد وعزم واحد . قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [٦] .

والسؤال : ما الذى جمعهم إلى هذا الرباط ؟

والجواب : لقد كان الجامع لهم هو تقليدهم لرسول الله ﷺ وما عليه صحابته لقول رسول الله ﷺ : " أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " [٧] .

---

(١)كان هذا النداء مع ذات السلام بمثابة التمييز لهؤلاء القوم عن غيرهم .

(٢)وذلك من سمات أهل الله وخاصته الذين يحمدون الله على كل حال ويفوضون الأمر لله على مختلف الصور .

(٣)وكأنه ﷺ يريد أن يقارن لهم بين حالهم قبل الإسلام ، وحالهم فى ظل الإسلام ، كما يقارن لهم بطريقة عملية بين أن تمسك الدنيا أطرافها عنهم حتى لا تمتد إليهم وبين ماهم فيه من قرب ، ومودة .

(٤)العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج (١) ص ٣٤٠ .

(٥)سورة البقرة الآية (١٥٢) .

(٦)سورة الصف الآية (٤) .

(٧)العلامة إسماعيل من محمد العجلونى الجراحى (ت: ١١٦٢هـ) كشف الخفا ج (١) ص ١٤٧ ح رقم ٣٨١ وقد رواه البيهقى وأسنده الديلمى وعن ابن عباس بلفظ أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم .

وأهل الصُفَّة كانوا من الصحابة وقد رفضوا الدنيا، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ، فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم ، وهكذا أهل الربط كانوا متقابلين بظواهرهم ، وبواطنهم وهم مجتمعون على الألفة والمودة يجتمعون للكلام ويجتمعون للطعام والذكر ، فكان لا بد لهم من التألف والتودد والنصح ، لأنهم بنسب الأرواح اجتمعوا، وبرابطة التأليف الإلهى اتفقوا[١]، وعلى ذلك فتقليد الصوفية لأهل الصُفَّة هنا تقليد مشروع .

وإذا تتبعنا حال أهل الصُفَّة فى اجتماعهم وافتراقهم [٢]، وجميع أحوالهم، رأينا ذلك كله مماثل حال الصوفية فى الرباط . وكأن الصوفية متطلعين للاهتداء بهديهم، فقد كان الرباط يحتوى على شبان، وشيوخ وأصحاب خدمة ، وأرباب خلوة [٣] ولكن اجتماعهم على تلك الحالة غير مضر بوقتهم . بل هو تألف الود والنصح قال رسول الله ﷺ : " لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف " [٤] .

وبذلك نرى أن أهل الصُفَّة كانوا بمثابة الشيوخ للصوفية . فالشيخ : " واقف مع مراد الله، والخادم واقف مع نيته ، فالخادم يفعل الشىء لله ، وبالتالى الشيخ فى مقام المقربين والخادم فى مقام الأبرار " [٥] .

والخدمة عندهم جملة من العمل الصالح ، وهى طريق من طرق المواجيد، تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة " [٦] .

واجتماعهم على هذا النحو يعد خاصية لهم، وصلوا إليها بتزكية نفوسهم، وصفاء سرائرهم، ومرابطتهم لخدمة دين الله، ومصالح العباد فكان الائتلاف بعد الاختلاف، قال رسول الله ﷺ : " الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف " [٧] .

---

(١)الإمام العارف السهروردى – عوارف المعارف ج (١) ص ١٨٣ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢)سواء كان الاجتماع أثناء النهار والعوده من أعمالهم أو أثناء الليل مع أذكارهم ، أوكان افتراقهم لقضاء حوائجهم أو القيام بمهام خدمة الدعوة الإسلامية فقد كانوا فى جميع هذه الأحوال ممتثلين قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .

(٣)الإمام العلامة أبو حفص السهروردى – عوارف المعارف ج (١) ص ١٨٥ .

(٤)العلامة على بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٧هـ) مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٧ (دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربى ، القاهرة بيروت ١٤٠٦هـ) .

(٥)العلامة أبو حفص السهروردى – عوارف المعارف ج (١) ص ٨٨ .

(٦)العلامة أبو حفص السهروردى – عوارف المعارف ج (١) ص ١٨٨

(٧)الإمام البخارى صحيح البخارى ج ٣ ص ١٢١٣ دار ابن كثير ، اليمامة بيروت (ط (٣)- ١٤٠٧ هـ – ١٩٩٧م) ، الإمام مسلم بن الحجاج – صحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) ج ٤ ص ٢٠٣١ (دار إحياء التراث العربى بيروت) .

٢ - الموازنة بين الآجل والعاجل

وهي سمة جديدة من سمات أهل الصُفَّة وسوف أعرض لها عند أهل الصفة أولاً ثم عند الصوفية على النحو التالى :

أ – عرضها عند أهل الصُفَّة :

أخبرت كتب الآثار المعتد بها أن أهل الصُفَّة كان فيهم من هو صاحب مال كثير قبل إسلامه[١] ، ومنهم من كان صاحب جاه عريض ، ومجد تليد ، تعده أسرته ليكون سدنا للأصنام ، وخادمًا للأوثان ، وراعيا لما يتم عند البيت الحرام من البحائر [٢] ، والأنصاب [٣] والأزلام [٤] ، لكنه لما ذاق حلاوة الإيمان ترك ذلك كله وراء ظهره . كمصعب بن عمير .

وكانت همم هؤلاء قبل الإسلام تتعلق بالرغبات الجسدية ، والنزعات المادية ، والاتجاهات التى تسعى للترف والرفاهية ، حتى إن بعضهم كان يعتبر المثال فى البذخ والترف بالنسبة لأقرانه ، وكانت أطماعهم لا تقف عند حد بعينه فى متطلبات الدنيا وأغراضها، فلما يسر الله لهم ، واستنارت بالإيمان قلوبهم تبدلت أحوالهم وتغيرت مواقعهم ، فصارت العاجلة بالنسبة لهم تحت أقدامهم ، بينما صارت الآجلة هى همهم، وتاج العز فوق رؤوسهم، ومن ثم امتدحهم ربهم فمن امتدحهم فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾[٥] .

ومن المؤكد أن أهل الصُفَّة كانوا يعيشون قبل الإسلام عيشة تتعلق بظروف

---

(١)كسيدنا (صهيب بن سنان) الرومى حيث كان يعمل بالتجارة ، فلما أسلم وجاء دوره فى الهجره وقف المشركون له فتخلى عن ماله كله وذهب إلى الله مهاجرًا لا مال معه ولا أهل ولا ولد ، وكان هذا حال أصحاب رسول الله ﷺ كلهم، مثل سيدنا (عثمان بن عفان) الذى كان بالمال إلى رضاء الله متوصلاً ، ويبذله لعباد الله متنقلاً ، ولحظ نفسه منه متقللاً ، و (عبد الرحمن بن عوف) الذى كان قدوة ذى الثروة والجدات فى الإنفاق . وقد أفاضت كتب السنة والتراجم فى الحديث عن ذلك .

(٢)جمع بحيرة وهى الناقة كانت فى الجاهلية إذا ولدت خمس أبطن شقوا أذنها وأعفوها أن يُنتفع بها ، ولم يمنعوها من مرعى ولا ماء ، وقد أبطل الإسلام هذه العادات الجاهلية . المعجم الوجيز باب (بَحَرَ) ص ٣٧ .

(٣)جمع (نُصُب) وهو حجارة حول الكعبة يعظمونها ويذبح عليها الذبائح الشيخ / حسنين مخلوف – كلمات القرآن – تفسير وبيان – ص ٦٢ (دار المعارف ط١٣ سنة ٢٠٠٠م).

(٤)الزلم : هو السهم الذى لا ريش عليه ، والجمع (أزلام) . وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام ، وكانوا يكتبون عليها الأمر أوالنهى ويضعونها فى وعاء ، فإذا أراد أحدهم أمر أدخل يده فيه وأخرج سهما ، فإن خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهى كف . راجع المعجم الوجيز باب (زلم) ص ٢٩١ .

(٥)سورة النازعات الآية (٤٠ – ٤١) .

البيئات التى وجدوا داخلها ، من تعلق بالدنيا ، وحرص عليها والوقوف بين يديها، وكانت هى همهم بل كانت هى غايتهم التى يسعون إليها [١] .

بيد أن من تربى على تلك العادات لم يكن من السهل عليه التخلى عنها إذ المألوف أن النفس تكره أن تفارق ما تعودته ، ولكن هؤلاء لما تسلل إلى قلوبهم نور الإيمان ، واشرئبته نفوسهم امتدت إليه رؤوسهم ، وتطاولت نحوه أعناقهم ، فصار هو الأثير الذى يستشقون أعابيره ، وهو الجمال الذى ينتظرون بواكيره ، وهو النور الذى لا يرتجون غيره بديلاً لقوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ** ﴾[٢]. وقوله جل شأنه: ﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** ﴾[٣].

وأهل الصُفّة استطاعوا أن يسيطروا على الجانب البدنى، وأن يجعلوه خادمًا للروحانى، والربانى، على أساس أن فى كل إنسان ثلاثة جوانب هى :

الأول : النفسانى : وهو ظهور صفات النفس فى كسوة الخيال بصور الحيوانات المناسبة لتلك الصفات، وهو الإطلاع على صفات النفس ليستدل بذلك على أحوالها فى الصلاح والفساد، فيعالجها بتبديلها وإزالة غلبتها [٤] . وفى الحديث الشريف : " إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين، وزهده فى الدنيا، وبصره عيوبه " [٥] . بحيث يعرف أنواعها وكيفية التغلب عليها، ومعالجتها، بحيث يرتقى منها إلى ما هو أعلى حتى يصل إلى معرفة الله عز وجل وفى الأثر: " من عرف نفسه عرف ربه " .

الثانى: الروحانى: وهو ما يكون للخيال فيه تصرف، ثم يترقى عنه إلى الوقائع القلبية، بحسب صفاء النفس، وترقّية وسلامته من شوائب صفات النقص وتنوره بنور الذكر [٦] .

وهذا الجانب كان غالبًا على بنى البشر فى كل أحوالهم وبخاصة إذا خرجوا عن دائرة المحسوسات، وترقوا إلى دائرة المعقولات ، ولا شك أن الخيال له دور كبير فى حياة الإنسان متى كان منضبطًا على قواعد من المعمول بها .

وأهل الإيمان ينظر الواحد منهم بهذا الجانب إلى العوالم العلوية ، ومنها عالم الأرواح وكيفية سيره ، أو تصرفه فى الملكوت ، وقد يشاهد الواحد منهم أنوار

---

(١)يدل على ذلك أشعار العرب قبل الإسلام ، ونثرهم فى الحديث عن الدنيا وشهواتها، يستوى فى ذلك الخمر والقتال والنساء وماكان من هذا القبيل .

(٢)سورة الأنعام الآية (١٢٥) .

(٣)سورة الزمر الآية (٢٢) .

(٤) راجع الشيخ أبو بكر عبد الله بن شاهاور – منارات السائرين ومقامات الطائرين، ص١٢٦، ١٢٧ .

(٥)العجلونى (ت ١١٦٢هـ– كشف الخفا ج١ص٨١ (مؤسسة الرسالة بيروت ط٤ سنة ١٤٠٥).

(٦)الشيخ أبو بكر عبد الله بن شاهور . منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ١٢٧ .

هذا العالم العلوى كسرج الشموع ، والمشاعل ، وربما رأها كالأضواء واللوامع والبروق والكواكب والأقمار ، والشموس . كل ذلك بحسب تصفية ذات الجانب ، وقوة الخيال ، وسلامة الاعتقاد ، يظهر ذلك مما أفاضه الله على عباده فى قوله تعالى: ﴿**فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ**﴾ [١] حيث يبدأ الصعود من الأخس إلى الأشرف ثم ينتهى إلى واجب الوجود [٢].

ولما كانت الروح بهذا النوع من التجرد ، فإنها تكون قادرة على التماس المعانى المكشوفة عن المواد والصور ، وحينئذ ترقى إلى العالم الأعلى ، وهى المرتبة التى تقف على أعتابها الربانية ، مشاعر أولى العلم والنهى .

وقد خاطب الله العقلاء بشئ من تلك المعانى فى قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [٣] . **يقول الإمام الغزالى :** إن هذه الخمسة (المشكاة ، والزجاجة ، والمصباح ، والشجرة ، والزيت) تمثل الموازنة فى عالم الأرواح التى تمهد لاستقبال العالم الربانى والاستقلال به [٤] .

وما ذلك إلا لأن نور الأنوار وأصلها هو خالقها البارى جل علاه . وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ: "**إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ما تسمع نفس شيئًا من حس تلك الحجب إلا زهقت نفسها**"[٥].

الثالث : الربانى : وهو ما يتعلق بإرائه آيات الله ، فى الملك والملكوت ، مع الكشف وشواهد أنوار الغيب ، والإشارات والإلهامات ، والكشف عن حقائق الأشياء، والعلوم اللدنية ، ثم يترقى بعد ذلك إلى ما يتعلق بتجلى صفات الجمال ، والجلال ، بحيث تفنى أوصاف الوجود ثم يتجلى ذاته واجب الوجود ، وحينئذ يصير ربانيًا [٦] . يأمر الأشياء فتطيعه ، وينفخ فيها من أسرار رحمات الله ،

---

(١)سورة ص الآية (١٠) .

(٢)الإمام أبو حامد الغزالى : المضنون به على غير أهله – الركن الأول فى علم الربوبية ص ٣٠٣ ضمن مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى – تحقيق الأستاذ / محمد مصطفى أبوالعلا (طبعة الجندى) .

(٣)سورة النور لآية (٣٥) .

(٤)الإمام الغزالى مشكاة الأنوار ص ٢١٦ ضمن مجموعة القصور العوالى مكتبة الجندى . تحقيق : الأستاذ محمد مصطفى أبو العلا . وقد أفاض فى شرح هذه الأرواح الخمس راجع ص ٢١٦ – ٢٢٠.

(٥)العلامة الديلمى – الفردوس بمأثور الخطاب ج ٢ ص ٢٢١ .

(٦)الشيخ أبو بكر بن عبد الله شاهور – منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ١٢٨ – ١٢٩ بتصرف يسير .

فتتحول بين يديه كأنها طوع أمره أو روضها على القيام بما يحب ويهوى .

وفى الأثر ما روى أن رسول الله ﷺ قال: " يقول الله عز وجل: عبدى أطعنى تكن عبدًا ربانيا تقول للشيء كن فيكون "[١]. وكثيرون من أهل الله قضى الله بينهم فكانوا يقولون للأشياء كن فتكون لهم الأشياء من ذلك قوله تعالى فى داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[٢]. وقوله فى سليمان عليه السلام : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [٣].

كما ورد أن أبا مسلم الخولانى[٤] ﷺ لما ألقى فى النار عطل الله عملها فلم تحرقه، وخرج منها سالمًا لم يمس، فكان ذلك من كرامة أبى مسلم عند الله عز وجل[٥].

فإذا نظرنا إلى أهل الصُفَّة وجدنا أنهم نظروا إلى أبدانهم وأنفسهم وأرواحهم فكانوا قبل الإسلام يُغَذون أبدانهم ، ويشيعون الجوانب النفسية الغريزية فيهم ، ويحبون العاجلة، ولا يعرفون شيئاً من الجوانب العملية المتعلقة بالآجلة ، فلما دخلوا الإسلام وازنوا بين ماضيهم الذى قطعوه ومستقبلهم الذى ينتظرونه ، كما وازنوا بين ماض أغرقوا أنفسهم وأبدانهم فى ملذاتهم، وحرموا أرواحهم ورباناتهم من متطلباتها ؛ فقلبوا الأمور حتى تعتدل الموازين . من ثم كانت نظرتهم للعاجلة ، نظرة نفرة وإدبار ، بينما نظرتهم للآجلة نظرة حب واستقبال .

وبناء عليه لا نستغرب تخلصهم مما كانوا فيه من عز الدنيا ولذة الجاه ، إلى ضيق المكان والمؤنة ، وقلة النفر . وذلك أنهم وازنوا بين ما تسعى إليه البهائم من لذة أجسادها وإشباع غرائزها ، وبين ما يسعى إليه أولياء الله ، فهم يسعون إلى الله همهم رضوانه، وغايتهم النظر إلى وجهه الكريم ، وبالتالى كان أهل الصُفَّة من أولئك النفر الربانيين .

وفى تقديرى أن أهل الصُفَّة لما وازنوا بين لذات العاجلة وجدوها مُتقلبة مُتدنية زائلة فرفضوها، ولم يعبؤا بها، بل سارعوا إلى التخلى عنها، والتخلص منها، وكان ذلك ديدنهم عبرت عنه مظاهرهم فى لباسهم وطعامهم ومسكنهم وملازمتهم الصفة .

---

(١)العلامة الشيخ محمد أبو البركات الأسنوى – الأحاديث القدسية – جمع وتحقيق (باب العين ص ١١٧)

(٢)سورة سبأ الآية (١٠) .

(٣)سورة ص الآية (٣٦) .

(٤)كان ﷺ على جانب كبير من العبادة والتقوى والورع حتى لو قيل له إن جهنم لتسعر لما استطاع أن يزيد فى عمله شيئًا ، وكان ﷺ يترك الأكل ويقول : الخيل إنما تجرى وهى ضمر . راجع الشعراوى – الطبقات الكبرى ج ١ ص ٨٥.

(٥)العلامة الشيخ / إسماعيل النبهانى – جامع الكرامات الأولياء ج (٢) ص ١٧٨ وما بعدها (المطبعة الأميرية ١٣٢٣هـ) .

وأنهم نظروا للآجلة فوجدوا نعيمها لا ينفذ ، وأنواره لا تنقطع، حيث قال رب العزة : ﴿ **وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (١) .

كما أنهم قرروا فى أنفسهم مراجعة حساباتهم مع ذواتهم ، فوضعوا الآخرة فى الكفة المنتظرة ، فإذا هى رابية وفوقها ربوات، وربوات ، ومن هنا تمسكوا بها ، ولم يفرطوا فيها ، كما وجدوا العوض قائمًا فى الزوجة ، والمال ، والولد بأحسن منه وزيادة على الأحسن قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ** ﴾ (٢) .

وبذلك فضلوا الآجلة ذات النعيم المقيم ، على العاجلة الفانية المتقلبة المتدنية ، فنالوا رضى الله عز وجل، وصاروا ربانيين بما اكتسبوا من المواهب العالية .

ب – أثرها على الصوفية :

من المؤكد أن الصوفية قد تلمسوا طريقهم فى المراقى العلا إلى ما أسرى عن رسول الله ﷺ وصحابته لأن عمادهم هو الكتاب والسنة ، وحرصهم عليها لا يقاربه حرص عليهما شىء آخر ، ولما كان ذلك شأنهم فقد أعدوا أنفسهم لاستقبال هذا الوارد عن الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ وفعل صحابته رضوان الله عليهم قال مسروق : " صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كأخاذات ، لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم " (٣) .

ومن ثم كان نظر الصوفية إلى أهل الصُفّة – فى هذا الجانب – على أنهم أصحاب فهوم ، لا أصحاب مظاهر ورسوم (٤) ؛ لأن أصحاب المظاهر والرسوم هم أهل الغفلة الذين يعنون بأموالهم فيتفقدونها ، ويبحثون عنها ، ويحرصون عليها ويسعون إلى تكثيرها وزيادتها، فمظاهرهم تفضح سرائرهم ، وسلوكياتهم تكذب دعاواهم .

أما " أهل الزهد والعبادة فإنهم يوازنون بين العاجلة والآجلة ، ثم يعملون على ممارسة الزهد والعبادة ، ويتفقدون أحوالهم من هذه الناحية ثم ينقلبون إلى أهل المعرفة حيث يتفقدون قلوبهم مع ربهم كأنهم يقولون ما من نفس بيديه إلا ويجب

---

(١)سورة البقرة الآية (٢٥) .

(٢)سورة يس الآيات (٥٥ – ٥٦ – ٥٧) .

(٣)العلامة السهروردى – عوارف المعارف ج ١ ص ١٠٠ تحقيق د / عبد الحليم محمود ، د محمود بن الشريف (دار المعارف ١٩٩٣)

(٤)لأن أصحاب المظاهر والرسوم ليس عندهم شىء من صفاء القلب ولذا هاجمهم شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى ج (١١) ص ١٨ .

أن تكون فيها طاعة له " [١] .

ولما كان الصوفية يستمدون طريقهم من القرآن والسنة ، فقد صاروا " أكياسًا تسعى فيهم الفطانة فيصارعون الدنيا مصارعة يوسف الصديق من امرأة العزيز، وهى مصارعة الهرب والإدبار، كأنهم يقولون لها أننا لن نغتر بك مهما أقبلتى أو أدبرتى ، فلسنا ممن يسقط تحت أقدامك ، وبالتالى فقد صاروا من الكياسة بالقدر الذى قال عنه رسول الله ﷺ " المؤمن كيس فطن " . والحكماء الأكياس يقولون لا أمن من مكر الدنيا ولا زينتها فالسلامة لى فى ألا أتناولها ، وإن تناولتها ، فلا بد أن: أكون على عين الحراصة منها حتى لا يبقى معها سم ينالنى أذاه " [٢] .

وفى نفس الوقت فإن الصوفية الأقحاح [٣] متى وازنوا بين أمور الدنيا وجدوها إلى زوال ، فما من يوم تطلع شمسه إلا وتعود آفلة فى المغيب، وما من بدر اكتمل ، إلا وعاد من حيث كان .

وبناء عليه فإذا نظروا إلى الصحة وجدوها تتقلب مرضًا ، وإذا وجدوا المال تبدل بهم حاله آنا بعد آن ، فإذا حاولوا الإبقاء عليه لم يتمكنوا منه ، لذا فقد كانوا حريصين على ألا يكون فى قلوبهم ولا تستولى مظاهره على نفوسهم ؛ لأن مطلوبات الشرع قد طغت عليهم وبخاصة ما سمعوه من كلام ربهم ، وأحاديث نبيهم فى ذم الدنيا ، والاشتغال بها ، " فتركوا الأسباب التى هى شريعة الضعفاء، وتمسكوا بالتجريد الذى هو شريعة الأقوياء ، وحقيقة الأصفياء فصيروا الفرق الذى هو الاشتغال بالأسباب لعين الجمع الذى هو الاشتغال بمسبب الأسباب ، فالنظر للأسباب فرق والنظر لمسبب الأسباب جمع ، يقول أبو العباس المرسى للناس أسباب وسببنا الإيمان والتقوى " [٤] . والله تعالى قال : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [٥] .

بيد أن الناظر إلى الصوفية يراهم دائمًا يسعون للآخرة ، ولا يقتصرون على الانعزال عن أسباب الدنيا ، وإنما يأخذون من الدنيا بأسبابهم التى تكون فى أيديهم من

---

(١)العلامة الشيخ تاج الدين أبو العباس ابن عطاء الله السكندرى – تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ص ١٥ (طبعة الحلبى الثانية ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م) . ومعه كتاب منظومة بدء الأمالى فى التوحيد للشيخ الفرغانى .

(٢)العلامة أبو بكر عبدالله محمد بن على الحكيم الترزذى – الأكياس والمغتربين – ص ٤٦ تحقيق د / محمد إبراهيم الجيوش ط ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م .

(٣)أقحاح : جمع قُحٌ وهو كل ما خلا من الشوائب الغريبة وكأن الصوفية الأقحاح هم الصوفية الخُلص لله رب العالمين فلم يشوبهم شائبة ولم يعيبهم عيب . راجع المعجم الوجيز باب (قحٌ) ص ٤٩٠ .

(٤)العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ، الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٥٠ .

(٥)سورة الأعراف الآية (٩٦) .

غير إجحاف أو تصعر حتى لا يبقى فى نفسهم شيء من التحسر، عليها. وأهل التصوف يسعون دائمًا إلى أن يكون شغلهم بالله هو أعلى مما سواه يستوى فى ذلك الرجال والنساء.

ومما يؤكد تأثر الصوفية بأهل الصُفَّة فى هذا الجانب ما ذهب إليه العلامة القشيرى وغيره من أن ذكر الله يظل فى قلوبهم كأنه الأثر، وعلى ألسنتهم الرواء العذب ، قيل للجنيد مرة : قل – لا إله إلا الله – فقال : ما نسيته حتى أذكره ثم أنشد فقال :

حاضرٌ فى القلب يعمره ∴ لست أنساه فأذكره
فهو مولاى ومعتمدى ∴ ونصيبي منه أوفره (١)

ولما كان أهل الصُفَّة قد أحكموا أمرهم على أصول الدين الصحيحة علمًا وعملاً ، فإن الصوفية هم الآخرون كانوا على هذا المنوال ينسجون ، وعلى نفس المنهج يسيرون، لأنهم رأوا أن سترهم بالله فجعلوا عشقهم له وحده دون سواه ، وعلموا أن بابه مفتوح للطلاب ، ولا حاجب عليه ولا بواب ، فاندفعوا إلى جانب الواحد الوهاب أما " المحجب عن السبب من وقف مع الأسباب ، وعلى قدر الخطاب ، رد الجواب ، فالمشروب حاضر والمحروم من حرم الشراب والمحبوب ناظر ، والمطرود من وقف من وراء الحجاب " (٢) .

وفى تقديرى أن العلاقة بين الصوفية ، وأهل الصُفَّة فى هذا الجانب جلية وأن السعى خلف النصوص المتكاثرة لإثبات هذا الجانب يمكنها أن تكلف الدارس كثيراً من الوقت والجهد ولا ينتهى الحديث فيها ويغلب على تقديرى أن ما ذكر فيه الكفاية، وأن من أراد المزيد فله مراجعة المصادر التى أشرت إلى بعضها .

ثالثاً : المرابطة مع اللين المشروع .

وردت مادة كلمة المرابطة فى القرآن الكريم (٣) فى عدة مواضع متفرقة ذات معان متقاربة ، حيث جاءت على معنى الإقامة تأهبًا للجهاد (٤) ، كما جاءت فى معنى القوة الممنوحة من الله لعباده ، ليتمكنوا من الصبر على أمره (٥) ، ووردت تفيد شدة اليقين مع الصبر (٦) ، وكذلك نجدها فى حبس الحيوان والاعتناء به

---

(١)العلامة القشيرى الرسالة القشيرية – ص ٢٩٣ .

(٢)العلامة عز الدين بن عبد السلام ، سلطان العلماء زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز ص ٩٨ .

(٣) ذكرت مادة الكلمة (ر ب . ط) خمس مرات فى القرآن الكريم / راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٦٨ .

(٤) قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة آل عمران الآية (٢٠٠).

(٥) قال عز وجل : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ سورة الكهف الآية (١٤) .

(٦) قال جل شأنه ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ سورة الأنفال الآية (١١) .

وتقويته وعدم الحمل عليه، ليتفرغ لأعمال الجهاد[١]، وأخيرًا للعصمة والتثبت[٢].

وكل هذه المعانى مجتمعة تحمل فى ألفاظها، وبين طياتها معنى القوة الشديدة[٣] التى يجب أن يتحلى بها المسلم حتى يُعد من المرابطين فى سبيل الله المنتظرين أمره.

وكذلك وردت مادة كلمة اللين فى القرآن الكريم [٤] فى مواضع مختلفة تحمل عدة معان متنوعة ، منها اللين فى القول [٥] والفعل سواء أكان الفعل على ناحية عملية أم إلزام خلقى [٦] .

كما جاء لفظ اللين بإطلاقه الخاص على الشىء سهل التشكيل بحيث يصير فى يد صاحبه كالعجينة اللينة فيشكله كيف يشاء [٧] ، ومن تلك المعانى أيضًا السكينة والاطمئنان من غير انقباض [٨] ، وكذلك الكرم والعطاء بدون مقابل[٩] .

والنظر إلى لفظ المرابطة وما يحمله من معان ، ولفظ اللين وما يحمله من معان ، قد يبدو لصاحب النظرة العَجلى أن اللفظين مختلفان متقابلان لا يمكن الجمع بينهما على أحد المعانى ، ولكن بالنظر السديد نلمح مقدار الاتفاق والتقارب بين جانب من هذه المعانى ، يستطيعه المسلم ، فيقوم بالجمع بين القوة الشديدة، والرحمة، والرأفة ، حتى يكون قويًا متصديا لكل ما خالف شرع الله ، رحيما ودودًا مع كل جوانب الطاعات المشروعة ، ثم ينتقل من حال الفردية إلى حال الجماعة ، فيكون مرابطًا مع جماعة المؤمنين ضد أعداء الله ، ليئًا مع إخوانه من المؤمنين، وهذا حال رسول الله ﷺ مع أصحابه، ووصف الله تعالى أصحاب رسول الله به قال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [١٠] .

وكأنى والآية هذه ، والمعانى السابقة ، فى درس عملى ، علمنا إياه رب العزة،

---

(١) قال رب العزة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٢) يقول جلا وعلا: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة القصص الآية(١٠).

(٣) يستعمل لفظ ربط على القلب عندما يشتد فلم يفر عند الفزع ، والرابط هو الشجاع قوى القلب ، والترابط للجماعة الذين يجمعهم أمر يشتركون فيه . المعجم الوجيز ص ٢٥٢.

(٤) ذكرت مادة الكلمة (ل.ي.ن) فى خمسة مواضع فى القرآن الكريم . راجع المعجم المفهرس للقرآن الكريم ص ٧٥٦ .

(٥) قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ سورة طه الآية (٤٤) .

(٦) قال رب العزة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

(٧) قال تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ سورة سبأ الآية (١٠) .

(٨) قال جل شأنه : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ سورة الزمر الآية (٢٣) .

(٩) قال تقدست أسماءه : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ سوءة الحشر الآية (٥) .

(١٠) سورة الفتح (٣٩) .

فالمؤمن يكون مرابطًا حين المواجهة ، لينا حين التعامل ، وكأن الجماعة المسلمة بأثرها قد اتفقت على الترابط ، والشدة والغلظة للعدو ، والترابط على اللين والود والرحمة فيما بينهم .

وقد فهم أهل الصُفَّة هذا المعنى كما فهمه عنهم الصوفية الأقحاح وهذا ما سوف أعرض له بشيء من التفصيل حسب تيسير الله تعالى .

١ - المرابطة فى الله :

وقد التقط أهل الصُفَّة لفظ المرابطة ، وفهموا معانية ، ثم استطاعوا توظيف تلك المعانى طبقًا للقواعد الشرعية ، التى وقفوا عليها ، فمنهم من حبس نفسه حتى سيطر على عقله ، وجوانحه ، ورغباته ؛ فلا يسمح لها بالانفصال عن العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة ، وبالتالى جاءت الأخلاق الحميدة .

وقد عبر عن ذلك الإمام الغزالى حيث يقول : " إن انقطاع الخلق عن الحق إنما يكون بوقوفهم مع الخلق ، ومع أنفسهم ، ورؤيتهم أفعالهم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة ، باختلاف أهويتهم التى نفوس البشر مجبولة عليها [١] . وحب الجاه والمال والدنيا ، والرئاسة والشهرة ، وطول الأمل والتسويف ، والشح والهوى ، والعجب وفحش الأغذية ، من المطعم والمشرب والملبس ، وفساد الدنيا وغلبة الشهوات النفسانية على القلوب [٢]، فإن ذلك يمثل انقطاع الخلق عن الحق ، كما يؤدى إلى الكسل والبلادة والغفلة ، وغير ذلك مما يبعد عن الله تعالى " [٣] .

أما أهل الصُفَّة فقد كانت مرابطتهم قائمة على معنى تحلية القلب بعد تخليته ، فالتخلية إبعاد ، والتحلية جلب ، ومتى استطاع المسلم التخلى عما سوى الله وثبت فى وجدانه التمسك بالله ، فقد ربط نفسه بذات من خلقه ، وحينئذ لا يوجد إلا حيث أمره ، ولا يفتقده إلا حيث نهاه [٤] .

---

(١) وأبو حامد الغزالى هنا يمايز بين أمرين :
الأول : المرابطة فى سبيل الله بالمعنى الفنى الدقيق وهى التى تعنى إفراغ القلب من كل ما سوى الله بحيث ألا يرابط فى هذا القلب إلا بذكر الله .
الثانى : أن يكون المرء منقطعًا لأعمال تتعلق بالشريعة وهو مشغول بها فتحتل من قلبه المكانة الأولى لا المكانة الثانية وهو أدنى من الجانب الأول بكثير.

(٢) وذكر من الشهوات النفسانية ، التزين للناس ، والتلبس بالأوصاف المذمومة كالفعل والحسد والحقد والجهل والحمق والرياء والنفاق ، وانبعاث الجوارح فى غير طاعة الله تعالى ، والعين والسمع واللسان ، واليد والرجل . راجع الإمام أبو حامد الغزالى . إحياء علوم الدين – ربع المهلكات حيث تناولها بالتفصيل .

(٣) الإمام أبو حامد الغزالى – روضة الطالبين وعمدة السالكين – ص ٩٥ ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالى (دار الفكر ج (١) بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) .

(٤) العلامة محمد بن الحسن الرازكانى ، أولياء الله هم خاصتهم ص ٨٣ (الدار المحمدية ج (١) ١٣٣٦هـ) .

وأهل الصفة كانوا فى رباط دائم مع الله، كما أنهم قد مهدوا لذلك الرباط ، فمنهم تارك لقومه وماله وشهواته وبنيه، رابط نفسه إلى سيده وهاديه ، فهو منفلت من كل المخلوقات ، مرتبط بمن أنشأ هذه الكائنات. إنه لا ينشغل بشىء أبدًا، وكأنه جرع من كأس المحبة قطرة ، فصارت نورًا لا تعرفه ظلمة، وقديما قيل :

يارب قطرة من فيض جودك ∴ تملأ الأرض ريا
ونظرة من سبحات نورك ∴ تجعل الكافر وليا

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن أهل الصُفَّة كانوا من أهل الله وخاصة، وأنهم من جملة أوليائه ،والأولياء كثيرون " لا ينقص عددهم ولو نقص واحد منهم لنقص نور النبوة " [١] . وكانوا يستمدون وجودهم من أنوار رسول الله الذى هو قبسة من نور مولاه، من ثم فكانت مرابطتهم أولا قلبية ، ثم تعلقت بالقوى النفسانية ، وأخيرًا ظهر أثرها على الجوارح البشرية يقول الإمام الغزالى : " إن الله تعالى قد أفاض إلى الخلق بسيدنا محمد، وأنه ﷺ قد أفاض إلى الخلق ما أوحى إليه من صلاح العباد فى معاشهم ومعادهم، وأنه ما كتم شيئًا من الوحى وأخفاه، أو عن الخلق طوه" [٢] وكان أهل الصُفَّة يدركون ذلك، فشابهوا رسول الله ﷺ ، وربطوا أنفسهم عند عتبات رضوان الله .

ثم إن أهل الصُفَّة قد انطلقوا نحو المقصد الأسنى ، وعرفوا ما يخص أسماء الله الحسنى، فسارعوا إلى التحقق بها والمرابطة عندها ، والالتزام بما فيها فكانوا هم الذين انعقد من ناحيته إلى ربه وارتبط به ارتباط المخلوق بالخالق ، وحاول أن يكون متحليا بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور بحقه تعالى، وبالتالى انكشف له من معرفة الله على سبيل المكاشفة والمشاهدة حقائق البرهان، التى لا يجوز فيها الخطأ، وإنما يقع لها الوضوح والبيان [٣] .

ومتى نظر دارس إلى أهل الصُفَّة وجد أن مرابطتهم لله قد اتخذت مظاهر عديدة نذكر منها :

المظهر الأول : استخدام المصطلحات الشرعية :

أ – عند أهل الصفة :

---

(١) الشيخ الإمام تاج الدين أبو العباس أحمد بن عطاء الله السكندرى – تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس – ص ١١ (طبعة مصطفى الحلبى الثانية ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م) .

(٢) الإمام أبو حامد الغزالى – الجام العوام عن علم الكلام ص ٢٧٣ – ضمن مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى – (مكتبة الجندى) تحقيق الأستاذ محمد مصطفى أبو العلا .

(٣) الإمام أبو حامد الغزالى – المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى – ص ٣٣ تحقيق الأستاذ / محمد مصطفى أبو العلا (مكتبة الجندى) .

وذلك بالإنفلات عن فكرة ضأن الله [١] ، وربيط الله [٢] المادية التى سادت الديانات الوثنية ، وعرفتها الجزيرة العربية قبل الإسلام [٣] ، لأنها تمثلت فى رباط جسدى، وذبائح بشرية [٤] .

ب – أثر هذا المظهر عند الصوفية :

المراجع لسير الصوفية الأوائل يراهم قد نظروا إلى الأفكار التى كانت مصادرها بعيدة عن الإسلام نظرة استغراب، واستبعاد لأنهم كانوا يعدون هذه العلوم من الشركيات التى لا يمكن قبولها أو التعامل مع القائلين بها ، وفكرة ربيط الله المادية من تلك الأفكار المستبعدة .

وبناء عليه صدرت فتاوى عديدة منهم تحرم تلك الثقافات وتتهم القائلين بها بالتقصير فى الدين [٥] ، كما كانوا يعتبرون الثقافات الواردة عن غير الكتاب والسنة من الثقافات الدخيلة التى يجب أن ينفض المسلم يده عنها ، كما يجب أن لا يكون لها أى سلطان عليه لبعدها عن قواعد الحق ، وخروجها على متطلبات الشرع، دليل ذلك ما ذهب إليه الحكيم الترمذى من قوله : إنا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان، هى الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب، والصدق على العقول ، فإذا قرب غدًا إلى الميزان لوزن الأعمال وضعت الحسنات فى كفة الحق والسيئات فى كفة العدل والصدق فى لسان الميزان ، وبه رجحان الحسنات على السيئات ، فمتى رضى الله عن العباد فى عبوديتهم اجتمعت هذه الأركان فى كل امرئ بعينه " [٦] .

ولا يمكن أن تكون الثقافة الواردة عن غير المسلمين مقبولة على قواعد الحق أو العدل أو الصدق عند الصوفية ، ومن ثم نفضوا أيديهم منها، وانصرفوا عنها ، وتمسكوا بما جاء فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، ثم اطمأنوا إلى أن أهل الصُفَّة كانوا الأكثر قربًا ،

---

(١) كانت هذه الفكرة معروفة فى بلاد فارس ، وقد اشتهرت عندهم . راجع لسرجى توتكاريف – الأديان فى تاريخ شعوب العالم ص ١٧١ وما بعدها – ترجمة المهندس محمد فاضل (طبعة شركة الأهالى بسوريا ١٩٩٨م) .

(٢) راجع للدكتور/ على سامى النشار نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام – ج (٣) ص١٨٣ .

(٣) دليل ذلك ما حدث لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى – محمد ﷺ فى الحديث الشريف : " أنا ابن الذبيحين " فتح البارى فى صحيح البخارى – باب رؤية إبراهيم عليه السلام .

(٤) وقد انتشرت فكرة الذبائح البشرية فى كل من اليهودية والمسيحية بعد التحريف، كما ظهرت لدى القدماء المصريين وأهل بابل ، وديانات الكلت الأقدمين . راجع وول ديورانت – قصة الحضارة – المجلد الأول ج (٢) الشرق الأدنى – لأنس رحمتوف / الديانات الوثنية فى شبه الجزيرة الهندية ص ٥٧ وما بعدها (ط دار التقدم موسكو ١٩٩١م) .

(٥) راجع للشيخ محمد بن على الحكيم – الصوفية الأوائل واتجاهاتهم الفكرية ص ٧١ (طبعة أولى ١٩٤٥) .

(٦) العلامة أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى – الأكياس المغتربين ص ٢١ .

والأقرب فهمًا ، فحاولوا أن يقلدوهم فى سلوكياتهم ، وبالتالى ربطوا أنفسهم لله كما فعل أهل الصُفَّة ، وانقلبوا عن الفكرة المادية إلى العقيدة الروحية يقول ابن عجيبة: " إن الحق سبحانه خص مظهر الآدمى بخصائص لم تكن لغيره، منها أن جعل روحه اللطيفة النورانية فى قالب كثيف ليتأتى له منه غاية التصريف، وأن هذا القالب قد جعل فى أحسن تقويم، وأبدع فيه من بدائع حكمته، وعجائب صنعته ما يليق بقدرة السميع العليم " (١) .

وعلى هذا يعد ارتباط الصوفية بالله بعيدًا تمامًا عن الأفكار المادية بل كان فى صميم القيم الروحية، بدليل أنك إذا سألت من الصوفى ؟ كان الجواب : أنه من صفّ نفسه وقلبه لربه، فصار بهذا العمل صورة من الصور النورانية، وإن كان يمشى بين الناس فى أشكال طينية مادية .

وبناء عليه صار الصوفية من " أصحاب مشاهدات الجمال ، وأرباب مكاشفات الجلال ، الذين اختصهم الله بهذه السعادة ، واصطفاهم لهذه السيادة . بلا هم ، وهم فى كتم العدم محبوسون من عهد القدم ، وخياط القضاء بخياط القدر " (٢) .

فكان رابطهم لله ربط محبة ومودة ، ربط قرب وألفه ، ربط قلوب وعقول ، استطاعت السيطرة على الجوانح والجوارح، يقول العز بن عبد السلام : " فمن أشرقه الله تعالى على جوارحه فاستعملها فى مصالحه ، فقد ملك دار ملكه ومن أشهده غيب قلبه ، وأنزله منازل حبه وقربه ، فقد شهد ملكوت ربه " (٣) .

وبالتالى فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى ذكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم (٤) ثم إنهم نظروا إلى قلوبهم فإذا هى منشغلة بالذكر والشكر، لكن ذلك لم يكفهم فانطلقوا إلى العمل والعبادة، يواصلون ذلك كله مقتدين بقوله تعالى : ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ (٥) .

ولما كان النوم يمثل نوع من الغفلة التى تجعل المرء قد يرتبط بالغفلة ولا يرتبط بالله ، اندفعوا إلى مطاولة العمل ، ومدوامة الجهاد والاستمرار فى رباط مع الله إلى يوم القيامة يقول السهروردى : إن النوم غفلة وهو من آثار الطبع ، وجدير أن يكون من ركز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى " (٦) .

---

(١) العلامة ابن عجيبة الحسنى الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٢٥.

(٢) العلامة أبو بكر عد الله شاهاور – منارات السائرين ومقامات الطائرين ، ص ٥٧.

(٣) العلامة العز بن عبد السلام – زبد خلاصة التصوف ص ٤٨ .

(٤) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص ١٤ – وما دامت قلوبهم قد صفت ونفوسهم قد ذكت فقد سمعوا آذان القلوب وزهدوا فى الدنيا زهد القادر عليه لا المنصرف رغمًا عنه ولا يكون ذلك إلا بوازع من قلب نقى ونفس حبيسة.

(٥) سورة السجدة الآية (١٦) .

(٦) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص ١٣٦ .

ومن ينظر لفكرة الانفلات عن ربيط الله لدى أهل الصفة يرى الصوفية قد قاموا بها على وجه دقيق ، مما يؤكد عمق العلاقة بين الفريقين وتوارد الخواطر على الجانبين، بحيث ينتهى المرء إلى القول بأن أثر هذا المظهر الذى أنشأه أهل الصُفّة ، قد ظهر بصورته لدى الصوفية الأوائل، ثم نقلوه إلى أتباعهم كأنه ميراث، وأنعم به من ميراث لدخوله فى نطاق قوله ﷺ : " أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " [١]. وأهل الصفة كانوا من جملة صحابة رسول الله – عليه الصلاة والسلام – .

المظهر الثانى : تقييم المواقف .

أ – عند أهل الصفة :

استطاع أهل الصُفّة تقيم مواقفهم، ومراجعة أرصدتهم المعرفية والقلبية، ثم وازنوا بينها وبين مقتضيات الإيمان، فرجحوا ما أمر به الله على ما تدعو إليه قوى النفس، ومن ثم أخذوا بمدأ التخلية حتى يمهدوا الأرض التى استولوا عليها فى قلوبهم، [٢] لتكون مهيأة تمامًا ليغرسوا فيها أشجار التخلية، التى لا تنضبط بجنس ولا لون ولا شكل ، وإنما تتعالى فوق الجميع ، إنها لذة جعلت نبى الله موسى – عليه السلام – حين عودته من لقاء ربه واضعًا يديه على أذنيه حتى لا تزول عنه لذة ما سمع [٣] .

ب – أثر هذا المظهر فى الصوفية :

إذا نظرنا إلى حال الصوفية من هذه المسألة، وجدناهم يعيدون حساباتهم مع أنفسهم المرة تلو الأخرى ، وكأن الواحد منهم مقبلٌ على لحظة الحساب .

يقول الشيخ الرورذاباذى : " إنى كلما راجعت نعم الله علىّ – وجدتنى أحاسب عليها الواحدة تلو الأخرى، فأستحى من لقاء الله فأبكى على ما فرطت فى جنبه " [٤]، بل إن هذا الشعور كان ينمو داخل الصوفية أنفسهم، بدليل أن أحد المشايخ قال لبعض الشباب يومًا : " إياكم وهذه المرقعات فإنكم قد تكرمون لأجلها ، فقال الشباب: إنما نكرم بها من أجل الله لا من أجل أنها مرقعات ، فقال الشيخ : حبذا من تكرم من أجله بارك الله فيك " [٥] .

---

(١) العلامة على ابن احمد بن حزم الأندلسى ت (٤٥٦) .الإحكام – ص (٢٤٤) دار الحديث ، القاهرة ١٤٠٤ هـ ط (١) العلامة محمد بن عبد الباقى بن يوسف الزرقانى – (ت ١١٢٢) شرح الزرقانى ج ٢ ص ٣٠٢ (دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١ هـ ط (١) .

(٢) والصوفية يرددون دائما القول بأن (قلوب العارفين أرض يبنى عليها رب العالمين) .

(٣) الشيخ عبد العظيم السيد رزق – والشيخ عبد الفتاح عطية الذنكلونى – من هدى النبوة ص ٨٣ (طبعة دار مراد ١٣١٦ هـ) .

(٤) الشيخ محمد على النجدى ، الصوفية الأوائل ص ٤١ ط (٢) دار المعتصم ١٣٢٣هـ) .

(٥) الشيخ أحمد بن عجيبة الحسنى – الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص (١٣١).

والإمام الغزالى ذكر نماذج عديدة من محاسبة الصوفية لأنفسهم وتقويمهم لمواقفهم، وسيطرتهم على هواجسهم النفسية والانفراطات الشهوانية ، وقد أكثر من ذكر نماذج لهذه الجوانب وبخاصة فى كتابه (إحياء علوم الدين) ، (والرسالة اللدنية) و (بداية الهداية) يقول الإمام أبو حامد : " إن أهل الطريق – يقصد بهم الصوفية – دائمًا ينظرون إلى ماضيهم فتقع لهم عليه المراجعات حينا بعد حين، وأنا بعد آخر فما وجدوا طريقا ظهر فيه الحسك [١] إلا اقتلعوه [٢] " .

وهو يقصد بالطريق هنا الموصل إلى الله ، وأما الأشواك التى تعترض الواصل فإنما هى أشواك الشهوات من الاغترار بالأعمال الصالحة أو الاندفاع إلى طلب اللذائذ، بينما لا ينظر إلى ماضيه، وما قدم فيه أو أكثر من النقم فى مقابلة ما أفاض الله عليه من النعم .

يقول الإمام الغزالى : " إن أهل الطريق كان الواحد منهم إذا ظهر منه ضعف فى أمر الدين تركوه ، وإذا ظهر منه بصرٌ فيه وقوة على القيام به تبعوه، فإذا رأوه قائمًا مع نفسه على نفسه أخذوا منه وتلقوا عنه" [٣] . وحتى يكون المرء على وفاق مع نفسه فلا بد من تأديبها وتهذيبها حتى تستجيب له وتخضع لأوامره وتسعى معه سعى العبد لسيده ، وبالتالى فلا بد من تقييم المواقف ومحاسبة النفس على ما قصرت والانفلات من قيودها مهما كانت محكمة الإغلاق ، سُئل الإمام الشبلى يومًا عن حال من أحواله فقال : " إن أحسن أحوالى تكون حين أوقف نفسى بين يدى خالقى وأناجيه ، فأسمع منه ويستجيب لى فإذا لم أسمع تأكدت أنى مقصر ، وإذا لم يستجب لى أدركت أنى لم احسن قرع أبوابه " [٤] .

بل إن الصوفية ينظر الواحد منهم إلى نفسه نظرة الصيرفى الذى ينقد الدنانير فيستخرج الزائف ويستبقى الأصيل وفى كل يوم يقوم بالعمليتين معًا – مراجعة ما قام به من أعمال ، وجملة ما أنعم الله عليه من نعم – وبلغة اليوم نسميه فى الأعمال المصرفية المقاصة .

إذن الصوفية أخذوا فكر تقيم المواقف من أهل الصُفَّة، ثم طوروا فيها طبقًا لظروف العصر، وطبيعة العابد، ونوع العبادة، بدليل أن أهل الصُفَّة كانوا يجيدون تقيم مواقفهم من خلال ما يرصد عليهم بقلم العزة ويخبر به النبى ﷺ ، ربما فى المجلس الواحد، كالحال مع سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ الذى قال فيه رسول الله ﷺ لجملة من الصحابة

---

(١) الحسك : نبات له ثمرة خشنة ذات أشواك تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل ، ويصنع على مثاله الآن الأسلاك الشائكة حول المعسكرات راجع المعجم الوجيز باب (حَسِكَ) ص ١٥١ .

(٢) الإمام أبو حامد الغزالى – الرسالة الوعظية ص ٨٦ ضمن رسائل الإمام الغزالى (دار الفكر بيروت) .

(٣) الإمام أبو حامد الغزالى– منهاج العابدين ص١٨(طبعة دار الكتب العربية الكبرى ١٣٢٧هـ).

(٤) الشيخ محمود حسن عبد العظيم – من أخلاق الصوفية ص ٨٣ ، ٨٤ (الدار المصرية ط (١) ١٩٤٥ م) .

حديثى عهد بالإسلام " لرجل عبد الله أثقل عند الله من جبل أحد " [١] .

كما وردت روايات يخبر فيها رسول الله أصحابه بأنه سيمر عليهم واحد من أهل الجنة مثلاً ، أو أن الله جل فى علاه يخبر عن منزلة واحد من أهل الجنة كسيدنا حذيفة ، وقوله لأم حارثة : " يا أم حارثة إنها جنان فى جنان، وأن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ". وكذلك قوله فى الثلاثة الذين خلفوا.

فأهل الصُفّة كان تقيم مواقفهم يتم من خلال عمليتين متواليتين أحداهما ذاتية يباشرها كل فرد منهم بنفسه ، والأخرى إلهية يخبر الله بها نبيه ، فيعلنها كأنها نتيجة ،وإن لم تكن منتظرة . أما الصوفية فإنهم يقومون بالعمليتين معًا إحداهما تقيم الحسنات مع السيئات فى الحصاد اليومى. أما الأخرى فتقوم على تقيم الناتج فى مقابلة النعم الإلهية ، وبالتالى حدث تطور سريع لفكرة تقييم المواقف عرف لدى الصوفية باسم مقام المحاسبة .

المظهر الثالث : التربع على مقام الإحسان .

أ – عند أهل الصُفّة :

قيام هؤلاء على التحلية إذا لم يعد هناك مكان للتخلية يدل على ذلك فعل أبى هريرة وقوله : " كان لنا أصحاب شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، فأما نحن فلم يكن لنا إلا رسول الله ﷺ فكنت أسعى خلفه، وكلما اشتد بى الجوع أضيق حزام بطنى ومعه الحجر [٢] . وكذلك الحال مع ابن أم مكتوم . الذى نعته ربه بقوله جل وعلا : ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى** ﴾ [٣] . فكأن ابن أم مكتوم قد صار عماه من شواهد التزكية عند مولاه، من ثم وصفه الله به، وبهذا العمى سماه فقال جل شأنه: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى** ﴾ [٤] . وكان يستخلفه رسول الله لإمامة المسلمين فى الصلاة، عندما يكون الرسول ﷺ فى غزوة من الغزوات أو استدعت الظروف أن يكون خارج المدينة المنورة [٥] .

ب – أثره على الصوفية :

لا شك أن لفظ الإحسان [٦] ومعناه قد جاء به نص القرآن الكريم حيث قال تعالى :

---

(١) الإمام ابن الجوزى – صفة الصفوة المجلد الأول ص ١٤٩ .

(٢) راجع فى هذا المعنى، العلامة أبو نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ص ٣٧٦ وما بعدها .

(٣) سورة عبس الآية (٣ ــ ٤) .

(٤) سورة عبس الآية (١ – ٢) .

(٥) راجع العلامة محمد بن حيان التميمى البستى – الثقات ج ٣ ص ٢١٤ ، ومشاهير علماء الأنصار ج ١ ص ١٦ ترجمة رقم (٥٣) .

(٦) وردت مادة الكلمة (ح . س . ن) فى مواضع كثيرة ذات معانى متنوعة فى القرآن الكريم . راجع فى هذا الشأن المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الأستاذ / فؤاد عبد الباقى ص٢٤٨ : ٢٥١ .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[١]. وقوله سبحانه: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٢]. وقوله جل شأنه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]. وتحدثت عنه السنة النبوية المطهرة قال رسول الله ﷺ: " الإحسان أن تعبد الله، كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٤]، وأهل الصُفَّة قد أدركوا ذلك على ناحية عملية قلبية تربوية، وإن لم يقصدوا بها هذه المفاهيم أو جرت لهم نفس المصطلحات التى قد يكون لبعضها استحداث كمصطلح ، واستخدام كمضمون تتم الممارسة عليه فى شكل عملى.

والصوفية أخذوا النصوص المتحدثة عن الإحسان باعتبار أنهم أتباع، وليسوا أصحاب صُفَّة ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [٥] ، فالمحبة نوعان : محبة العبد لله المودعة فى الإيمان ، ومحبة الله للعبد المودعة فى متابعة المحبوب [٦] ﷺ ، كما أن محبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه ، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية ، ومحبة الحق للعبد إرادته، وإحسانه إليه ولطفه به [٧] ، وقلوب المشتاقين منورة بنور الله تعالى . فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله تعالى على الملائكة فيقول : " **هؤلاء المشتاقون إلىَّ أشهدكم أنى إليهم أشوق** " [٨] . وكلما رقى الإنسان مقامًا بعد مقام ، فإنه يبلغ الإحسان ، وحينئذ ينظر إلى الله بنور الله، فلا يصرفه عن أنواره شاغلٌ مهما علا شأنه أو تكاثرت ألوانه .

فالعبد إذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله فى الوقت ذاته ، فلازم طريق الحق، أحسن ما بينه وبين الله عز وجل، من مراعاة القلب ، وحفظ الأنفاس، وراقب الله تعالى فى عموم أحواله فيعلم إنه سبحانه وتعالى عليه رقيب[٩] ومن قلبه قريب [١٠] يعلم أحواله ويرى أفعاله، ويسمع أقواله . ومن تغافل عن هذه الجزئية فهو بمعزل عن

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٥) .
(٢) سورة يونس الآية (٢٦) .
(٣) سورة القصص الآية (٧٧) .
(٤) الإمام مسلم صحيح مسلم ج١ص٣٩ حديث رقم ٩، والبخارى فى صحيحه ج١ص٣٩١، ٣٩٨.
(٥) سورة آل عمران الآية (٣١) .
(٦) العلامة أبو بكر عبد الله شاهاور – منارات السائرين ومقامات الطائرين، ص ٢١٧.
(٧) العلامة أبو القاسم القشيرى – لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٢٣٥ .
(٨) العلامة أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى – نشر المحاسن الغالية ص ١٩٣ تحقيق الأستاذ إبراهيم عطوة عوض .
(٩) قال تعالى :﴿إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ سورة النساء الآية (١) .
(١٠) قال تعالى :﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ سورة البقرة الآية (١٦٨) وقوله جل شأنه : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ سورة ق الآية (١٦) .

بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة[١]. قال تعالى: ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾[٢].

فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون، ما كان وما يكون ، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب [٣] ، وأول القرب، القرب من الطاعة مع دوام العبادة، ولذا أنشد بعضهم :

أرانى بعيد الدار لم أقرب الحمى وقد نصبت للساهرين خيام
علامة طردى طوال الليل نائم وغيرى يبرى أن المنام حرام [٤]

ومقام الإحسان يبدأ بالمحاسبة ، ثم ينتهى عند الصوفية إلى المراقى العلا فلا يكون هناك فاصل بين الله ولا بين العبد، لأن الحواجز التى تحول بين اتصال العبد بربه إنما هى عوائق قلبية، سببها تعلق النفس بالمشكلات المادية ، دليل ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن البر فى قوله ﷺ : " البر ما اطمئنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك " [٥] .لأنه فى جناب الله قائم وتحت مراقبته واقع ومتى أكثر المرء من ارتياد هذا الطريق نفذ إلى أعماق الكون فصارت المتنائيات بين يديه لأنه تحقق بقوله ﷺ : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " [٦] .

فالصوفية اعتبروا مقام الإحسان هو نهاية طريق التحرر من العلائق دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ** ﴾ [٧] . فالعبد الصوفى يسعى لمقام الإحسان، حتى يفك رقبته عن رق عبوديتها، بحيث تخلص لمن خلق فسوى، وقدر فهدى ، وكلما تحرر المرء من هذه القيود صعد إلى مقام الإحسان. بحيث يصير كأنه جزء منه .

المظهر الرابع : تحويل الأوامر والنواهى إلى واقع عملى :

أ – عند أهل الصُفَّة :

أعد أهل الصُفَّة أنفسهم لتلاقى المهام الإلهية ، وسرعة تنفيذها ، ومن ثم كانوا معلمى القرآن، والسنة تحت رعاية رسول الله ﷺ ، ومهذبى للنفوس والسلوك العملى، بفهمهم لمعانى الأوامر والنواهى الصادرة لهم، وتحويلها لمعاملات

---

(١) العلامة أبو بكر عبد الله شاهاور – منارات السائرين ومقامات الطائرين الطائرين ص ٣٩٢ بتصرف يسير .

(٢) سورة العلق الآية (١٩) .

(٣) العلامة أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى – نشر المحاسن الغالية ص ١٩٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٩٨ــ ١٩٩.

(٥) العلامة الدارمى – سنن الدارمى ج ٢ ص٣٢٠ (دار الكتاب العربى ط (١) ١٤٠٧هـ)

(٦) العلامة / مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيرى النيسابورى ت (٢٦١ هـ) . صحيح مسلم – ج١ ص٣٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (دار احياء التراث العربى ، بيروت) .

(٧) سورة البلد الآيات (١١ــ١٣) .

اجتماعية وأخلاقية فنرى فيهم فهما صحيحا لمعنى مثل الإيثار والعدل، وحب الخير، ولقيام الليل، والسعى فى مصالح المسلمين بأقصى طاقة ممكنة، وكأنهم كلما تلقوا آية من كتاب الله أو تعلموا قولاً أو فعلاً من رسول الله ﷺ لم يقفوا به على ناحية العلم النظرى، بل فتشوا عن طرق تحويل ذلك الأمر أو النهى إلى واقع عملى معاش كان له أثر طيب فى حياتهم، ومن عايشهم، ثم امتد هذا الأثر فيما بعدهم .

ب – أثره عند الصوفية :

أخذ الصوفية هذا المظهر عن أهل الصُفَّة ، فاستحدثوا ما عرف عنهم باسم (الفتوة) [١] حتى صار ذلك المصطلح يمثل جملة من المعانى الجملية، والخصال الحميدة، والأخلاق الكريمة، بجانب المواهب الثنية، والقيم الروحية معتصمين بحبل الله ، آخذين من كتابه وسنة رسوله ﷺ بجانب ما تركه أهل الصُفَّة .

ومن ثم حولوا كل ما جاء به الوحى إلى واقع عملى ارتبط السلوك فيه بالفكر، وصح فيهم قول الله تعالى : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا** ﴾ [٢] .ونظرًا إلى أن تحويل الأوامر كلها على أرض الواقع يستلزم أن تعمل فيه بما شرع الله، فقد أورثهم الله الهدى دليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾.

وما ينسب إليهم مخالفًا تلك القواعد فإنما يرد عليه قوله : " لأن الصوفي عارف والعارف هو الذى يسمع من الله تعالى ، ومن يسمع من الله فإنه يظفر برضوان الله ، أما من لا يعرف ولا يسمع من الله فالبهيمة خير منه " [٣] . قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [٤] .

والذى تطمئن إليه النفس أن العلاقة بين الصوفية وأهل الصُفَّة فى هذا المظهر ليس من السهل إنكارها ، كما يصعب فصم العرى التى تربط بينها أو فطم القلوب

---

(١) الفتوة : هى الإيثار على النفس بما تحب والإحسان إلى الخلق كما يجب ،ولذا قيل لم تكمل الفتوة إلا لرسول الله ﷺ . حيث يقول فى موضع لا يذكر فيه إلا نفسه : أمتى أمتى ، وقيل أن لا ترى فضلا لنفسك على غيرك ، والفتى من لا خصم له ، ومرجعها إلى السخاء والتواضع والشجاعة فى مواطن الاضطراب، ففتوة العامة بالأموال، وفتوة الخاصة بالنفوس، وفتوة خاصة الخاصة بالأرواح وبذل المهج فى جانب المحبوب .
العلامة : ابن عجيبة الحسنى ــ مصطلحات التصوف من واقع كتاب " مراجع التشوف إلى حقائق التصوف ص١٠ ــ إعداد وتقديم الدكتور / عبد الحميد صالح حمدان (مكتبة مدبولى ط (١) ١٩٩٩ م) .

(٢) سورة الكهف الآيتان (١٣ ــ ١٤) .

(٣) شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام – ذبد خلاصة التصوف ص ٧٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

والجوارح عن قبولها [١] . وهو من سمات الصوفية، والقواسم المشتركة بينهم وبين أهل الصُفَّة ، ولا ينكر ذلك من له إلمام بالتصوف وأهل الصُفَّة .

المظهر الخامس : تبليغ دعوة الله وتأمينها .

أ – عند أهل الصُفَّة :

نستطيع القول بأن أهل الصُفَّة رابطوا أنفسهم لتبليغ دعوة الحق على كافة الوسائل الممكنة ، وأنهم كانوا هداة لله يقومون بواجبهم على أتم وجه وأكمله ، فرأينا منهم كتبة الوحى وحملة الحديث ، والمبلغين عن الله تعاليمه ، بل كان بعضهم يرسل من قبل رسول الله لتبليغ ذات الدعوة وتأمينها والقيام على واجباتها بكل ما أمكنه من قوة، والمحافظة عليها والدفاع عنها .

ب – أثر ذلك عند الصوفية : قام الصوفية بذات الدور ، لأن التصوف عندهم " علم تعرف به أحوال تزكية النفس، والأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية " [٢] .

ومن ثم فهو علم تقع فيه الوراثة [٣] بالعمل والممارسة مع الفيض الإلهى، وهو ما يطلق عليه اسم العلم اللدنى .

وقد فهم الصوفية هذه المسألة فقاموا عليها متبارين لا متمارين ، وبالتالى ظهر منهم **المفسرون** ، وعرف عملهم فى التفسير باسم التفسير الصوفى [٤] كالذى وضعه الإمام القشيرى في كتابه لطائف الإشارات ، **والحديث** أيضًا ظهرت جهود المحدثين من الصوفية [٥] ، بدليل ما قام به الشيخ الأنصارى فى شرح صحيح

---

(١) ذهب الصوفية إلى أن منازل القربات لا يصل إليها السالك إلا إذا قطع ستة عقبات وانفطم ست مرات كل مرة تصاحبها عقبة :

الأولى : فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية – الثانية : فطم النفس عن المألوفات العادية – الثالثة : فطم القلب عن الرهونات البشرية – الرابعة : فطم السر عن الكدرات الطبيعية الخامسة : فطم الروح عن التجارات الحسية – السادسة : فطم العقل عن الخيالات الوهمية . ومن انفطم عن هذه العقبات استطاع الوصول إلى أقرب منازل القربات . الشيخ العز بن عبد السلام – زبد خلاصة التصوف ص ١٩ .

(٢) الشيخ زكريا الأنصارى ، هوامش الأنصارى على شرح الرسالة القشيرية . ص ١٢.

(٣) فالوراثة هنا ليست وراثة جينات ولا أموال وعقارات ، وإنما هى وراثة خاصة تقوم على العلم اللدنى الناتج عن العمل الصحيح بالعلم الصحيح ، ففى الحديث الشريف : " من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعمل " .

وقال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ سورة البقرة ٢٦٩ .

(٤) وهو غير التفسير الإشارى والتفسير الباطن والتفسير الغنوصى ، فلا علاقة لشىء منها بالتفسير الصوفى . راجع الدكتور محمد حسين الذهبى – التفسير والمفسرون .

(٥) وهناك رسالة فى الجامعة الأمريكية بمدينة نصر – القسم الإسلامى تحت عنوان " محدثى الصوفية ومواقفهم من خوارق العادات " يقوم بها الباحث صلاح محمد محمد متولى وكم أتمنى أن تتم لإظهار جهود هؤلاء فى هذا الجانب .

مسلم ، وكذلك ما قام به الشيخ حفنى محمود ناصف فى كتابه التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ،ومن قبله أبو نعيم فى الحلية، وكذلك الشيخ إسماعيل النبهانى فى كتابه الجامع لكرامات الأولياء .

كما ظهر فى **علم الكلام** جمع غفير منهم: الشيخ محمد بن محمد الأمير، وعائلة اللقانى ، وكذلك الشيخ إبراهيم الباجورى . ومنهم **الجامع بين شتى العلوم والفنون** بحيث إذا رآه من بعيد ناظر إليه وجده طودًا شامخًا كالإمام أبي حامد الغزالى .

بل ظهر فى الصوفية أجيال متعاقبة، كانت مهامها نشر الدعوة الإسلامية فى البلاد النائية كالحال مع مجاهل أفريقيا، والهند، وجورجيا، والصين وكل البلاد التى كانت بعيدة عن وسائل الاتصال أو الانتقال . كما كان لهم دور كبير فى تأمين الدعوة الإسلامية بإنشاء الربط [١] والزوايا [٢]، بل إن بعضهم أقام التكايا [٣] بحيث تكون هذه كلها بمثابة مدارس تعليمية ، دعوية تربوية، تنهض بأعباء التبليغ والتأمين، والدفاع عن الدعوة والبلاد الإسلامية، فكانوا بسلوكياتهم العملية، ومعارفهم الدينية، وشجاعتهم الأدبية والأخلاقية، والقلبية أمثال تحتذى ، مما كان له أكبر الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية، وتأمينها والدفاع عنها كتابًا وسنة ، عقيدة وشريعة ، سلوكًا وأخلاقًا، كأنهم صور مما رُسم بأيدى أهل الصُفَّة .

المظهر السادس : العكوف على الحلال .

أ – عند أهل الصُفَّة .

ومعناه الكسب الحلال والإنفاق فى المشروع، سواء فى الأموال أم فى الأعمال ، وذلك بالقدر المباح طبقًا لما تفرضه الشريعة الإسلامية . وبالتالى ربطوا أنفسهم لله فلم تقع جوارحهم فى أمر يخرجهم عن ميدان التحلية . لأنهم خافوا الارتداد إلى الخلف ، أو الانقلاب على الأصل فيقع التبديل وهم يكرهونه ، وقد ضرب القرآن الكريم لهذا التبديل المثل ومن ثم حذر منه المسلمون جميعًا فقال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ**

---

(١) لفظ (الرباط) الأصل فيه ما يربط به الشيء . ثم استعمله الناس على أماكن إقامة الصوفية ، بمعنى أنهم يلتزمون هذه الأماكن، ولا يفارقونها مجاهدة لأنفسهم ونوازعها ..

(٢) الزاوية فى اللغة : هى (رُكنه) لأنها جمعت بين قطرين منه وضمت ناحيتين وقد تطلق على المسجد غير الجامع ليس فيه منبر مخصوصًا للعبادة، ثم أطلقت على أماكن تجمع الصوفية والفقراء . راجع المعجم الوجيز مادة (ذوى) ص ٢٩٧.

(٣) هى بيوت يشيدها الأمراء والأثرياء ، ليقيم فيها أهل التصوف ليلاً ونهارًا متفرغين للعبادة والعلم والتعليم ، وكان منشؤها يحبسون عليها الأوقاف، ويجرون على أهلها الأرزاق، ويجزلون لهم العطاء . راجع الدكتور / فاروق أحمد مصطفى ، البناء الإجتماعى للطريقة الشاذلية ص ٧٧ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م ، والدكتور عاصم محمد رزق خانقاوات الصوفية ج (١) ص ٢٠ (مدبولى ط ١ ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م) .

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]. ولذلك نرى المؤمنين يتعوذون من وقوع هذا التبديل لهم وقد كان الصديق ﷺ رغم أنه لم يكن من أهل الصُفَّة – يدعو الله ويسأله ألا يقع عليه التبديل.

ب – أثر ذلك على الصوفية :

عرف الصوفية أن أهل الله لا يعرفون حرامًا أبدًا إلا من باب العلم [٢] أما الممارسة فلم تقع له أبدًا ، بل كان الواحد منهم يترك الحلال مخافة الوقوع في الشبهات يقول محمد الدارى : " إن الواحد من أهل الحقيقة إذا أقبل على الله في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له " [٣] .

وكذلك أثر عن أبى تراب النخشبى أنه قال: " تركت الحلال لا رفضًا له، وإنما خشية أن أكون قد سهوت فوقعت فيه شبهة "[٤]. وكان الكثيرون منهم يعمل بالليل على ضوء القمر ، فإذا قبض أجر ما عمل أخرج جزء منها للصدقة ، بحجة أنه أقام بهذا العمل على ضوء مصباح الآخرين، من غير إذن صادر عنهم [٥] .

وكثيراً ما ظهرت هذه الملامح على أهل التصوف، فإذا بالواحد منهم يعمل قدر طاقته، حتى يكون في الأجر الذى يأخذ من الثواب ما يغطى بغض النظر عن كون

---

(١) سورة الأعراف الآيتان (١٧٥ – ١٧٦) وهذه صورة من صور التبديل الذى قد يقع فيه الإنسان فيتبدل حاله من الإيمان إلى الجحود ، ومن التصديق إلى التكذيب . ونزلت هذه الآية في رجل من بنى إسرائيل آتاه الله العلم بأدلته حتى صار عالمًا بها ، فانسلخ منها وتركها فكان كالحية التى تنسلخ عن جلدها وتتركه على الأرض وتمضى ، فأتبعه الشيطان فكان له قرين ، وكانت عاقبته البوار ، والخذلان في الآخرة والأولى عقابًا له على ترك آفاق العلم والمعرفة واختيار الأدنى على الأعلى فصار حاله في قلقه الدائم في الدنيا وانشغاله المتواصل في تحصيلها، كمثل الكلب في أسوأ أحواله عندما يلهث دائمًا . وهذا وصف ينطبق على جميع الذين بدلوا نعمة الله من بعد ما عقلوها .. وفى ذكر تلك القصص فرصة لمن أراد أن يتفكر فيؤمن ويرابط على الإيمان . راجع في ذلك تفسير الجلالين ص ٢٢٩ ، المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٢٣٦، والدكتور عبد الله شحاته ، تفسير القرآن الكريم ج (٩) ص ١٦٣٠ – ١٦٣١.

(٢) والأصل فىالدين التوقى من الحرام، لكن ذلك لا يمنع من العلم به، حتى لا يقع فيه وهو لا يعلم أنه حرام على مثل قولهم :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

الإمام الغزالى – إحياء علوم الدين– المجلد الأول ص ٧٧. تحقيق بدوى طبانه.

(٣) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ص ٢٥ .

(٤) الشيخ محمد حسن نصار – الصوفية ودورهم فى التربية ص ٣١ (الطبعة الأولى ١٣٣٥هـ) .

(٥) الشيخ سعد الدين محمد أبو اليسر ، بين الشريعة والحقيقة ص ٨١ ، ٨٢ (الدار المصرية ط (١) ١٣١٣هـ) .

الواحد منهم يعمل بالأبره أو الركوة [١] حيث كانت الأبره للحياكة وكانت الركوة للطهارة .

فى نفس الوقت فقد ظل الصوفية يسارعون إلى الحلال فى الأعمال، والأقوال والنوايا، بغية أن يكونوا قد أدى الواحد منهم جزء مما عليه، نحو مولاه من ذلك " ما روى عن أبى يعقوب النهرجورى أنه قال : قلت لأبى يعقوب السنوسى : هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجل، فقال أبو يعقوب وهل يرى غيره فيتأسف عليه " [٢].

إذن لم يكن تركهم للحلال من باب الترف أو التبذير أو تحريم ما أحل الله ، وإنما كان مخافة الوقوع فيما لا يرضى الله ، وهو ما يكشف العلاقة بين الصوفية، وأهل الصُفَّة، ويوضح أنهما يتلاقيان فى هذا المظهر كثيرًا بل إن القواصم المشتركة ليس من السهل تخطيها أو القفز فوقها .

وبملاحظة ما ذكر تبين أن المرابطة لدى أهل الصُفَّة اتسع معناها فشمل العقل، والقلب ، والجوارح ، كما تجاوز ميدان الدنيا إلى الآخرة، فصارت الدنيا بالنسبة لهم مجرد وسيلة يمكن التخلى عنها، أما الآخرة فقد صارت هى الطريق الذى لا بد أن يمهد المرء نفسه للسير فيه ، وبأقصى طاقة ممكنة حتى يبتعد عن السقوط فيما سقط فيه الآخرون ممن كانوا على صلاح ثم انخدعوا بظاهره، فأسرتهم أنفسهم بمكرها ، وبالتالى تركوا أثارًا بالغة فيمن أتى بعدهم، وكان الصوفية من أكثر الذين أخذوا هذه المظاهر وقاموا عليها كأنها قواعد ثابتة ، ثم تبلورت هذه المظاهر فى أفهامهم ودعمت من خلال الأسانيد والأدلة الشرعية ، وأخيرًا قام الصوفية بفهمها وتعقلها حتى صارت مظاهر لهم أيضًا .

ثانيا : اللين المشروع :

مما يدعو للتآلف وجود كثرة من أهل الإسلام ينضون نحو هدف ، ثم ينضون تحت هذا الهدف لا يبرحونه ويضون عليه بأقصى ما يملكون ، بغية إرضاء الله رب العالمين ، وكلما كانت الغاية هى وجه الله الكريم ؛ فإنها تتم فى سهولة ويسر مع أن ظاهر القوم الشدة والقسوة ولو على أنفسهم .

من هنا يتضح أن كل امرء فيه لين من داخله وشدة من خارجه ، فإذا كان التوجه بها نحو الهدف المشروع من قبل الله تعالى صحت لأصحابها واستقامت أمورهم ، أما إذا كانت لغير المشروع فإنها تكون خسارة على أصحابها كما تجعلهم خربا البيوت والقلوب فى الدنيا والآخرة .

ومن ثم فسأعرض لسمة اللين المشروع لدى أهل الصفة ، ثم أبين وجهة

---

(١) حيث كانت مهنة السقى معروفة، ولم يكن لدى الصوفية مانع من أن يعمل أحدهم بها، أو أى عمل آخر، مخافة أن يطعم أولاده من مال فيه شيئًا من شبهة.

(٢) الإمام القشيرى الرسالة القشيرية ص ٢٤٤ .

نظرى وبعد ذلك أعرض لها كأثر عند الصوفية وسيكون ذلك على النحو التالى :

أ – عند أهل الصفة :

أهل الصُفَّة ميزهم الله بمميزات عديدة منها أنهم خصوا بتسمية معينة، ومنه أنه تعالى أنزل فيهم قرآنًا، ومنها أن رسول الله ﷺ نوه إليهم ، ونبه إليهم ، وسدد عليهم ، وكانت رقابته لهؤلاء رقابة الأب لأبناءه المتميزين لأمر يخصهم دون سواهم [١] .

وقد كانوا على علم بما يميزهم به رسول الله ، بدليل أنهم كانوا دائمًا يسألونه فيما يَعِنْ لهم أكثر من غيرهم ، وكان رسول الله ﷺ يتسامح كثيرًا معهم ويزيد فى الحنو عليهم بل ويكره من توجيههم رغم وجود ثلة من المسنين بينهم .

ومن ذلك ما تناقلته كتب السيرة من أن رسول الله ﷺ وزع يومًا فيئًا أو غنيمة فأعطى المؤلفة قلوبهم ثم أعطى غيرهم ، وظل يعطى حتى نفذ الفيئ وبقى واحدٌ من أهل الصُفَّة لم يُسهم له [٢] . ولم يسأل الرجل رسول الله ﷺ ، لكن بادر أحد الجالسين كأنه ينبه إلى ذلك الذى لم يسهم له فقال رسول الله ﷺ : إنى لم أقسم له لأن الله قسم ولأن له عند ربه منزلة تعلو فوق السهم والقسم ، فسر الرجل وشكر الله .

وذهب بعض المؤرخين على أن الرجل ما كاد يصل إلى مقعده الذى يقيم به حتى جاء من يستدعيه فيسمع ما أنزل الله فيه وينضم إلى قافلة المؤثرين فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى** ﴾ [٣] . فرضى الرجل وسُر سرورًا كبيرًا وقال الحمد لله الذى أعطانى ما لم يعطى غيرى فجعل سعى عنده مذكور وأجرى بين يديه مأثورًا [٤] .

وأهل الصُفَّة كانوا أصحاب حوائج متنوعة ، وغايات متعددة ، كما كانوا أصحاب اتجاهات تسعى نحو أهداف بعينها ، ومن ثم كان اللين القلبى من سماتهم البارزة لأن اللين يمثل مظهر من مظاهر الأحوال ، والحال عند القوم " معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو فيض أو أشواق أو انزعاج أو خيبة أو احتياج ، لأن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب " [٥] .

واللين القلبى معناه : انقياد إلى ما شرع الله بحيث يكون العبد بقلبه طوع إرادة

---

(١) ليس المقصود الامتياز فى جانب بعينه وإنما هو امتياز قد يتعلق بمزيد عطف وقد يتعلق بمزيد تكليف ، وقد يتعلق بالأمرين معًا فذلك كله من أوجه الامتياز .

(٢) لم تسمه المصادر ، ربما بتوجه من رسول الله ﷺ حتى يظل الأجر عند الله وحده ، وإما سهوًا من الناقلين لأمر يعلمه الله . وبعضهم ذكره ثم اضطرب فيه اضطرابا واسعًا .

(٣) سورة النازعات الآية (٣٥) .

(٤) الشيخ محمد عبد العظيم المهدى – فضل الصحبة والصحابة – ج ٢ ص ١٢٨ (طبعة المُعلم فرج محمد نجم – مطبعة مصر المحمية ١٣٣٤هـ).

(٥) العلامة أبو القاسم القشيرى – الرسالة القشيرية ص ٥٤ .

ربه لا ينصرف عنه ولا يحاول الانفلات منه أينما يتوجه يكون راضيًا، أو بارقة من البوارق تأتيه فإنه يكون قانعًا، فلينه يمثل صورة من صور الخضوع لأوامر الله. دليل ذلك أنه متى نزل قرآن يهذب عادة ، فإن القوم يلينون إليه ويأتمرون به، ويتناسون عادتهم التى جبلوا عليها كأنهم لم يعرفوها أو لم يسمعوا بها .

مثال ذلك : أن القوم كانوا يتعاقرون [١] الخمر ، فلما نزل القرآن الكريم مبينًا التحريم فى قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [٢] . هرع كل منهم إلى عقارته فبعضهم حطمها [٣] ، وبعضهم أفرغها [٤] من محتواها ، وبعضهم هجر تلك الأماكن ولم يعد يذكر أهلها ولا ما جرى بها رغم قدرته على المخالفة ، وضغط الشهوات عليه حتى يستمر لأن النفس أسيرة ما تألف حتى ولو كانت من المحرمات أو سلبيات العادات ، كالحال مع ذكر الآباء والأجداد بما يسئ أو يقدح فقد كان ذلك من عاداتهم فى الجاهلية . فلما دخلوا فى الإسلام كان أهل الصُفَّة الأسرع إلى التخلص من تلك العادات بدليل ما وقع بين أبى ذر ﷺ وابن السوداء حيث قال له ما يسئ إلى لو بشرة أمه [٥] ، فشكاه إلى رسول الله ﷺ فلما علم الرجل أن الله حرم هذا [٦] لأن لأمر الله وخضع وراح يحثوا التراب على هذه ويقول : يا رسول الله مُره فليضع قدمه على خدى لعل الله يغفر لى .

أما فى النواهى فقد كان أهل الصُفَّة ألين قلوبًا ، والأسلس قيادا ، والأقرب إلى التنفيذ العقلى والقلبى والعملى فلما وقعت النواهى من قبل الله، سارعوا إلى التخلص منها كقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ونكاح المحارم كقوله تعالى : ﴿

---

(١) أى يصنع ويعبأ ويشرب لنفسه وللآخرين وعاقر الخمر : لازَمها وداوَمَ عليها . المعجم الوجيز باب (عقر) ص ٤٢٧.

(٢) سورة المائدة الآية (٩٠) .

(٣) فأما هذا فقد اندفع بعاطفته الدينية ، دون أن يعطى قدراته العقلية الحق فى الاعتراض، أو التفكير فى طريقة التنفيذ ، فكان وازعه القلبى أعلى من رصيده الفكرى .

(٤) كان عمله دليلاً على أنه متمكن من ضبط جوارحه، وتسيرها طبقًا لما تمليه عليه القاعدة الدينية، وهى أن المال الحرام يهدر ولا يهدر ما يحمله ما دام حلالاً.

(٥) كانت العرب تنادى الأفراد بما فى أجسادهم ، أو أجساد آباءهم وأمهاتهم ، ولم يكونوا يقصدون المعايره فى الغالب ، وأنهما كانوا يقصدون التميز حيث كانت هذه الألفاظ بمثابة الألقاب ومنها ابن الدخنة ، ومنها ابن الدنبة ، ومنها ابن الرقطاء إلى غير ذلك مما اشتهر لدى العرب قديمًا ، وابن أم مكتوم .

(٦) فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة الحجرات الآية (١١) . والشاهد إن كان فيه فقد اغتبته وأن لم يكن فيه فقد بهته . ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات الآية (١٣).

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [١] وكذلك قول الله عز وجل : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [٢] .

أما فيما يتعلق بطبيعة المتروك للناس طبقًا للمصالح والمستجدات ، فقد كانوا يهرعون فيها إلى الله ورسوله، لا حيلة لهم فى ذلك، بدليل أنهم كان يكثرون من سؤال رسول الله ﷺ عن أمورهم الدينية، والدنيوية متى لزم الأمر فكانت إجابته لهم عن طريق العموم إذا كانوا فى جمع حتى لا تكون النصيحة فضيحة ، أما إذا لم يكن السائل فى جمع، فإن رسول الله ﷺ يأخذه من يده حتى يوقفه على الطريق الصحيح. قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [٣] .

أضف على ما سبق أن المرء المؤمن متى كان لين قلبه نحو تعاليم مولاه، فإن هذا القلب يفزع متى خلا من ذكر الله ، ويطمئن كلما لجئ إلى ذكر الله، فالمعيار هو اللجوء للذكر أو الانفصال عنه قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [٤] .

ثم إن العلماء ذهبوا إلى أن اطمئنان القلب بالذكر يكون دائمًا فى الإمساك به والخضوع له وعدم الفتور فى طلبه يقول ابن عربى[٥] :

" بقيت أربع سنين فى ذكر الاسم الأعظم لا أفتر عنه لا ليل ولا نهار حتى كان البدن كله يهتز به وحده ، فإذا قبضت على إحدى رجليه اهتزت الأخرى وهكذا

---

(١) سورة النساء الآية (٢٣) .
(٢) سورة النساء الآية (١١) .
(٣) سورة الأحزاب الآية (٢١) .
(٤) سورة الرعد الآية (٢٨) .
(٥) ابن عربى : هو أبو بكر محمد بن على وشهرته (محى‌الدين) ولد سنة (٥٦٠هـ) بالأندلس. له مؤلفات عدة أهمها (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) وهوالذى ألب عليه الفقهاء . وله (التفسير الصوفى للقرآن) وديوانان فى الشعر الصوفى . قال فيه محبوه إنه القطب والعارف بالله والولى ، وقال أعداؤه إنه الذنديق والمشرك . انظر عبد المنعم الحفنى ، الموسوعة الصوفية ص ٢٨٦ : ٢٩١ .

يجب أن يكون ذكر الله حتى يستمر الاطمئنان للقلوب " [١] .

بيد أن أهل الصُفَّة كانت قلوبهم واحة فبناء ترفل بين أعطافها تعابير النسيم ، وتسرى بين أعضائها همهمات أريحه ، فكلما بلغوا حالاً ارتقوا لأعلى ، وكلما أدركوا مقامًا ظلوا متعلقين بالذى بعده حتى صار الواحد منهم مرتبطًا بمولاه، ارتباط الصنعة بالصانع والمحتاج بالمستغنى والطالب بالمطلوب ، وكانوا كما قال حارثة :" أصبحت مؤمنًا حقا يا رسول الله " [٢] وما كان ذلك من حارثة إلا حيث كوشف برتبته فى الإيمان ، وقد جاءت على غير ما هو مألوف الناس .

فصار أهل الصُفَّة بمقتضى ذلك أصحاب قلوب لينة على المؤمنين ، عصبية على غيرهم من غير المؤمنين ، كهوفهم انحباسهم عن الشهوات ومغاراتهم البقاء فيما يرضى خالق الأرض والسماوات ، أما ملاجئهم فقد كانت فى الذكر والصبر والصدق والقرب ، قال تعالى : ﴿ **الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[٣].

وفوق ذلك فإن أهل الصُفَّة لم يكن لديهم شيء يحول بينهم وبين السيطرة على الجوانح والجوارح ، بدليل أن الواحد منهم كان يراقب سلوكيات نفسه قبل أن تصدر عنه ، وبالتالى يكاشف بها لا من باب العلم بالأسباب وإنما كان من باب إدراك النتائج المترتبة على المقدمات .

لقد كانوا ينظرون إلى أنفسهم، نظرة العدو المتربص، الذى لو غفل عنه غافل تسور على ماله فسلبه، وعرضه فانتهكه، ودمه فأهدره، وبالتالى كانوا على رقابة دائمة لسلوكياتهم المتواصلة كأنه قد امتثلوا قول الله تعالى : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا* وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا**

---

(١) العلامة أحمد بن عجينة الحسنى – الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٣٩.

(٢) الشيخ محمد بدوى عبد العزيز ، الصوفية وعلاقاتهم بالإسلام ص ٧١ (ط (٢) ١٣٥٣هـ).

(٣) سورة الأحزاب الآية (٣٥) .

وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ (١) .

وفى تقديرى أن ليونة (٢) القلب مرض وعيب ، أما لين القلب فطاعة وعمل مشروع، يقرب من الله إلى الله ، لنه لين نحو الهدف الأسمى ، والغاية العظمى، كأن صاحبه يقول لمولاه : " جئت إليك طائعًا ، ورنا قلبى نحو جنابك راجعًا ، وسأظل لجنابك راجعًا طائعًا مقادًا سامعًا " قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

لكن طبيعة القلب الصلب أن يحمل الجفاف والجفاء فهو لا يذكر الله إلا لغاية ارتبطت بها مصالحه الذاتية، فإذا انقضت تلك المصالح ما عدا يذكر اسم الله أبدًا قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٤).

والذى تطمئن إليه النفس أن أهل الصُفَّة كانت نفوسهم بالله متعلقة وقلوبهم فى أنوار معرفته راتعة ، أما جوارحهم فقد كانت مرهونة بقواهم الإيمانية ، ومن ثم كان اللين فى قلوبهم لين انطلق بهم نحو ربهم ، فصار ذلك نعتًا من نعوتهم، ووصفًا من أوصافهم بل حالة غالبة على ما يصدر عنهم ،فإذا ضمت هذه السمة إلى ما سلف كانوا أنوارًا تتلألأ وقلوبًا امتلأت بالمعارف الراقية ونفوسًا صعدت بين الأرض والسماء ، فلما انتقل أصحابها إلى دار البقاء صارت أرواحهم تطوف فى سماء الجنة وتعكف على ما فى قلوبهم فنالوا مرتبة الشهيد فى معركة الإسلام والمسلمين لقوله ﷺ: " إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة " (٥) .

ب – أثر ذلك عند الصوفية :

سلف القول بأن الصوفية ربطوا أنفسهم لله ، وسخروا جوارحهم لخدمته جل علاه، وأنهم هذبوا أنفسهم بحيث يبقى الواحد منهم فى المكان الذى يرضاه له ربه، لأنهم بنوا أنفسهم على كتاب الله وسنة رسوله، بجانب حقائق أربعة اعتبروها ممثلة للأركان العامة وهذه الأربعة هى :

١ – معرفة الله تعالى .

٢ – معرفة أسمائه وصفاته .

---

(١) سورة الفرقان الآيات من (٦٣ – ٦٥) .

(٢) ويقصد بالليونة هنا الوقوع فى الشهوات من أقرب طريق وهو المعبر عنه فى قوله تعالى ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ سورة الأحزاب الآية (٣٢) .

(٣) سورة النور الآية (٥١) .

(٤) سورة الحج الآية (١١) .

(٥) الإمام الحافظ بن حجر العسقلانى (ت٧٥٢هـ) – مختصر الترغيب والترهيب ص ١١٢ – الحديث رقم ٤٤٤ باب الجهاد (دار الدعوة الإسكندرية) .

٣ – معرفة النفوس وشرورها ودواعيها، بجانب وساوس العدو ومكايده .
٤ – معرفة الدنيا وغرورها وتفنينها وتلوينها وكيفية الاحتراز منها والتجافى عنها[١].

وهذه الأركان جعلتهم فى طاعة على الدوام حيث قاموا بأمرين فى وقت واحد:

الأمر الأول : هو تربية النفس وتهذيبها بحيث تكون طيعة لما يلقى من قبل الله عز وجل .

الأمر الثانى : سيطرة تلك الأمور الإلهية والنواهى الربانية ، والتعاليم السماوية على الأنظمة الحياتية فى كافة أشكالها ومظاهرها [٢] .

ولذا نرى الصوفية المتحققين ألزموا أنفسهم دوام المجاهدة وشدة المكابدة وحفظ الأوقات ، واغتنام الطاعات . ومفارقة الراحات والتلذذ بما أيدوا به من المطالعات وصيانة ما خصوا به من الكرامات [٣] ، فكانت قلوبهم ألين القلوب ونفوسهم أقرب النفوس وعقولهم أنقى العقول لأنها انشغلت بأنوار الله .

وفى نفس الوقت فإن الصوفية لم يجعلوا قلوبهم لينة إلا عند أمر الله بدليل أنهم فى الربط والزوايا بجانب الخرق والتكايا قد انكسروا إلى الله انكسار العارف به القائم مقام قوله : ﴿ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ [٤] . فمقام الواحد منهم أمام مولاه، إنما هو مقام من ينظر إلى نفسه حين يعرض على رب العالمين، ويسأله ماذا عملت ومن أين اكتسبت وفيما أنفقت . وفى الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ : " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسمه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به " [٥] .

وكان أكثرهم يضع نفسه حال حياته موضع المقبور عند دفنه حتى لا يجعل للقلب بابًا آخر غير باب ربه وذلك من السلوك العملى يقول مالك ابن دينار [٦] .

---

(١) الحافظ أبو نعيم الأصفهانى – حلية الأولياء ج (١) ص ٢٤ .
(٢) الشيخ محمد إبراهيم عبد العظيم نصار – أهل الصفة قديمًا ص ٨٤ (الطبعة الأولى ١٣٣١) وراجع الدكتور / محمد إبراهيم الجيوشى كتاب الأكياس والمغتربين ص ٤١ وما بعدها ..
(٣) راجع الحافظ أبو نعيم – حلية الأولياء ج ١ ص ٢٤ .
(٤) سورة طه الآية (١٢) .
(٥) الإمام ابن حجر العسقلانى ت(٧٥٢) ، مختصر الترغيب والترهيب ص ٢٠ ح رقم ٤٤ (دار الدعوة . الإسكندرية) .
(٦) مالك بن دينار : مولى لبنى " سامة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك " ويكنى أبا يحيى . وكان وراقا يكتب المصاحف بالأجرة ، وكان فى زهده ونسكه متشبهًا بالنبى يحيى وكان يدعوا للتجرد ويقول لو استطعت لطلقت نفسى . راجع المعارف لابن قتيبة ص ٤٧٠ ، الموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفنى ص ١٦٣ .

أتيـــت القبـــور فناديتهـــا ∴ أيـــن المعظـــم وأيـــن المحتقـــر
وأيـــن المـــدلل بســـلطانه و ∴ أيـــن المـــذكى وإذا مـــا افتخـــر

قال فنديني من بين القبور حيث أسمع ولا أرى شخص.

تفـــانوا جميعًـــا فمـــا مخـــر ∴ ومـــاتوا جميعًـــا ومـــات الخبـــر
تـــروح وتغـــذوا بنـــات الثـــرى ∴ فتمحـــوا محاســـن تلـــك الصـــور
فيا سائلى عـــن أنـــاس مضـــوا ∴ أمـــا لـــك فيمـــا تـــرى معتبـــر[1]

والصوفية فى لين قلوبهم بركة وخير وبر لأنهم بهذا اللين تدوم المودة بينهم وبين خلق الله . فيتمكن الشيخ من تدبير أمر المريد وحينئذ يعلمه ما أنـزل الله ، فالقرآن كلام الله سبحانه وتعالى، تكلم به جل شأنه، وكلام به عباده ، وأنزل كلامه وحيًا، تنزيلاً مع الكسوة النورانية ، فالنور الذى هو من عنـــد الله أصـــل كـــل الأنوار التى اتشعبت منه فصار فى كل طرف منه شعبة [2] .

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [3] .

وكما يلين الشيخ للمريد بحيث يعلمه القرآن ، فإنه يلين إليه أيضًا بحيث يعلمه الحديث الشريف ، كما يعلمه القيام بالتكاليف الشرعية والآداب الإسلامية ، لأن مهمة الشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه نور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده [4] .

أجل كل صوفى يجد من نفسه الرغبة فى أن ينقاد لغيره حتى لا يتحمـــل هـــو عقوبة الآخرين ، وإنما يكفيه أن يتحمل عبء نفسه، لأنه على يقين من أن أعماله سوف يحاسب عليها، وهو لا يحب أن تكثر حتى لا تطول لحظة الحســـاب فـــى الآخرة ، وهو فى نفس الوقت يعود نفسه على الانقياد للمريد الأقدم منه حتى يصل إلى المربى فيربط الصوفية قلوبهم بسلوكياتهم ومن ثم يمكن القول بأن أثر أهـــل الصُفَّة على الصوفية كان متعلقًا بالسلوك والأخلاق والمعاملات بجانـــب أرقـــى السمات القلبية بحيث يصير الصوفى كأنه مولود من أهل الصـــفة يقـــول الشـــيخ شاهاور الرازى : إن الولادة تكون بين الشيخ والمريد لا يشارك أحد فيهـــا لأنـــه

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى – مكاشفة القلوب – مختصر المكاشـــفة الكبـــرى ص ٩٣ (ط ٢ مصطفى الحلبى ١٣٧١ – ١٩٥٢م) .

(٢) العلامة الحكيم الترمذى ، كتاب الأكياس والمغترين ص ٩٣ تحقيـــق د/ محمـــد إبـــراهيم الجيوشى .

(٣) سورة المائدة الآيتان (١٥ – ١٦) .

(٤) العلامة السهرورى – عوارف المعارف ص ٣٧٥ .

كثيرًا ما يتفق أن يربى الصبى غير الوالدين ويقع لهذا المربى الانقياد ، وكلما تعلق المولود بجنين العبودية فى رحم إرادة المريد تعلق ظهوره وانعقاده على حسب تقدم الخلق نحو الحق [١] .

ويذكر الشيخ نجيب السهروردى[٢] أن الصوفية إذا ارتبط الواحد نهم إلى الله، وكان الرباط على القلب حبب إليه الانقطاع والعزلة حتى يتأدب، فإذا عاد إلى الناس بعد هذا الانقطاع فإنه يعظهم ويذكرهم ويلين لهم لا كواحد من رؤسائهم وإنما كواحدٍ من عامتهم[٣].

ويذهب شيوخ الصوفية إلى أن القلب اللين يكن بمثابة الأرض الجيدة التى تقبل الإنبات والاستنبات يقول الشيخ حماد الدباس [٤] : القلوب ثلاثة : قلب يطوف فى الدينا ، وقلب يطوف فى الآخرة ، وقلب يطوف بالمولى لا فى المولى [٥] ، فمن طاف فى المولى تزندق [٦] وهو فى كل حالاته دائمًا الانقطاع إلىالله ذليل عنده عزيز علىمن سواه , وحينئذ يخلع عن نفسه رق عبوديته الدنيا وأطماعها كما يلقى أهوائها بعيدًا بحيث يرى الدنيا عارية ويرى الأهواء ذابلة راجعة إلى مصادرها من غير التفات لشئ آخر [٧] .

والذى تطمئن إليه النفس أن علاقة الصوفية فى هذا الجانب بأهل الصُفَّة واضحة فى سلوكياتهم العملية والفكرية والأخلاقية بجانب أنها صورة متكررة فى

---

(١) الشيخ أبو بكر بن شاهور – منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ٤١٤ بتصرف يسير.

(٢) السهروردى : هو أبو النجيب السهرودى الملقب بضياء الدين ، وكان يلبس لباس العلماء ، وانعقدتا له الإمامة من المشايخ والعلماء بالاحترام ، صاحب إمامين من أئمة التصوف فى عصره هما الشيخ – حمادة الدباس ، والشيخ أحمد الغزالى شقيق الإمام أبو حامد الغزالى . والأكبر منه سنا ، ولد أبو النجيب فى صفر ٤٩٠ هـ وتوفى ببغداد فى حماد الأخرى ٥٦٣هـ عن عمر يزيد على ثلاثة وسبعين عاما وله آثار كثيرة فى التصوف الإسلامى راجع الشيخ الشعرانى – الطبقات الكبرى ج (١٢) ص ١١٦ .

(٣) الشيخ نجيب السهروردى – آداب المريدين ص ٩ (ط (١) ١٣٢٣هـ) .

(٤) هو حماد الدباس الذى يعتبر أحد العلماء الراسخين فى علوم الحقيقة ، انتهت إليه رياسة تربية المريدين ، وانعقد عليه الإجماع فى الكشف عما خفى من الواردات، انتهى إليه بعض مشايخ بغداد وصحبه الشيخ أبى نجيب السهروردى، وكان لحماد الدباس الكثير من المريدين الذين أخذوا عنه واستفادوا بعلمه .

راجع الشيخ عبد الوهاب الشعرانى – الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٦ ، وكذلك العلامة الهجويرى – كشف المحجوب ص ١٩٨ .

(٥) لأن طواف القلب فى المولى يقوم على الإلحاد ، وهو منهى عنه وإلا يتحول المرء من الإيمان إلى الكفر ، وقد جاءت الآيات والأحاديث حول النهى عنه .

(٦) لأن الله بين على لسان رسوله خطورة ذلك فقال ﷺ تفكروا فى مخلوقات الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا ، والطواف فى المولى هو التفكير فى الله وذلك كله يؤدى إلى البوار .

(٧) راجع الشيخ شاهاور – منارات السائرين ص ٤١٥ – ٤١٦ ناقلا عن هداية المريدين للشيخ أبى النجيب السهروردى ص ٣١ .

الفكر الإسلامى على الجوانب الإيجابية يدل على ذلك أن الصوفية لما أخذوا هـذا الجانب اعتبروه تراثًا مشتركًا بين المسلمين جميعًا بـدليل أن مشـايخ خرسـان ومشايخ بغداد وغيرهم ممن عرفتهم المدراس الصوفية قاموا على هذا الجانب فى أعمق صوره وأوسع انتشارًا وأعلى تركيزاً وأنهم قد سلموا ذلك لمن بعدهم مـن باب تبليغ العلم إلى أهله مع الإتقان والإجادة طبقًا لما جاءت به الشريعة الإلهية .

بل إن القارئ للتراث فى الفكر الإسلامى يراه قائمًا على مصادره الصـحيحة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله عليهم بدليل أن كل صوفى يضـع منهجه فى صور المؤلفات التى يعتمد عليها فيعلن أن المنهج هو التـزام الكتـاب والسنة ، وينبه إلى إمكانية وقوع التحريم والزيف فيقـرر أن أى علـم أو فكـر ينسب للتصوف أو الصوفية وهو مخالف للكتاب والسنة وما عليه إجمـاع الأمـة يجب أن يطرح فى الأرض وأن يلقى فى وجوه القائلين به فذلك هو الرد العملـى المناسب لهم وأمثالهم .

الخاتمة

أخبرنا الحق جل شأنه أن كل ما له بداية، أو من له بداية ، تلحقه حتما النهاية، وكذلك أنبأ أهل العلم أن كل عمل له بدايات، فحتما أيضًا تكون له نهايات انطلاقا من قواعد شرعية ، وأخرى علمية .

فمن الشرعية قوله ﷺ إنما الأعمال بخواتيمها، ومن العلمية ما استقر لدى أهل العلم ، من أن كل مبحث علمى، لا بد له من خاتمة تعبر عن تلخيص لأهم النتائج وأبرزها، من تلك التى وقف عليها الدارس بنفسه وجريا على تلك القاعدة ، **فسأحاول إبراز أهم النتائج التى وصلت إليها وهى تتلخص فيما يلى :**

(١) أن الصفة لفظ يحمل العديد من المعانى اللغوية، ولكل منها مدلوله الخاص، وهو ما يؤكد أن الكلمة عربية الأصل، ليست واردة من لغات أخرى أو مصطلحات أجنبية[١].

(٢) أن لفظ الصفة توجد بينه وبين أهلها علاقات متبادلة ، بعضها متعلق بالاسم ، وبعضها متعلق بالوصف ، وبعضها متعلق بالأعمال الشرعية التى كانت تتم بداخله، وهذا معناه أن الصفة لم تكن إلا من ناتج الفكر الإسلامى ، والتوجيهات الإلهية وذلك مما تشهد به الثوابت الشرعية [٢].

(٣) أن الصفة عبرت فى الإسلام عن معنى ، ومبنى ، ومغنم فصارت الجهات كلها متكاملة، يخدم بعضها البعض الآخر طواعية مما كان له عظيم الأثر فى بناء التصوف الإسلامى [٣] .

(٤) أن الصوفية الأوائل ظهرت الصفة فى وجداناتهم كما ظهرت فى مؤلفاتهم وسلوكياتهم ، مما يؤكد أنهم كانوا فيما يأتون أو يذرون متأسين برسول الله ﷺ ، وصحابته الكرام إلى أبعد مدى بحيث لا يمكن نسبتهم إلى غير ذلك الأثر .

(٥) أن التسمية بالصفة توقيفية ، وأهلها أنزل الله فيهم قرآنا يتلى ، وفى سماتهم وأعمالهم اتفاق بين المؤرخين ، وبالتالى فمن انتسب إليهم واقتدى بكتاب الله وسنة رسول ﷺ صار مثلهم [٤] .

(٦) أن أهل الصفة قد ميزوا على غيرهم، تفضلا من الله لا ميزة فى نفوسهم ، لأن ما يتعلق بهذه الجوانب من التفضيل والمدح مَرَدُه إلى الله تعالى لا إلى العباد، من باب الألطاف الإلهية على ما هو رأى أهل السنة والجماعة من أن أفعال الله تعالى بالعباد كلها لطف ورحمة حتى وإن كان الأثر الظاهر أو الصادر عن الفعل

---

(١) راجع حول هذه المعانى قطر المحيط – باب الصاد – فصل – الفاء وما يثالثهما – المعلم بطرس البستانى .

(٢) لأن أهل التصوف الأوائل يؤكدون أن علمهم مقيدٌ بالكتاب والسنة ، وأنه إذا نسب إليهم ما يخالف الكتاب أو السنة يجب طرحه بعيدًا وعدم نسبته إليهم .

(٣) راجع تفاصيل ذلك أثناء حديثنا عن الصفة وأهلها ومكانها وأعمال أهلها.

(٤) كأنهم ممن ينطبق عليهم قول رسول الله ﷺ ، هم القوم الذين لا يشقى جليسهم .

بخلاف ذلك [١].

(٧) أن أهل الصفة كثر عددهم، إلى حدٍ يفوق المكان المخصص ومع هذا وسعهم، فبان أن قلوب أهل الإسلام متى استنارت بنور الله اتسعت فصارت مستعدة لتلقى كافة الأنوار الواردة، من قبل الله تعالى فى معارف دقيقة تصلح لأمور الدين والدنيا، وهو الحال الذى سار عليه الصوفية الأعلام .

(٨) أن وظائف أهل الصفة تعددت ، فكانت كلها فى سبيل الله باعتبار الأسس والغايات ، بجانب المبادىء والأهداف ، حتى صار ذكر واحد منهم بمثابة الحديث عن تاريخ أمة ومن ثم كانت مظاهرهم فى التصوف الإسلامى رابية لا تسقط عليها ركامات ولا تنال منها رغامات .

(٩) أن أهل الصفة اتسموا بالإخلاص التام لله ، مع دوام الانقطاع له، فأحكموا التخلية والتحلية ، كما درجوا فى المقامات ، فصارت لهم المواهب والأحوال ، حتى كانت بين أيديهم كالمكاسب [٢] .

(١٠) أن أهل الصفة رغم تباين الأصول العرقية بينهم ، وتنوعها بين عربية وفارسية وغيرها إلا أنهم لما دخلوا فى الإسلام صارت غايتهم واحدة ، وأهدافهم محددة يجمعها حب الله وحب رسوله، وطلب رضوان الله وشفاعة سيدنا رسول الله.

من ثم قام الصوفية على ذات المنهج لا يبرحونه ، وإنما يعملون على تأكيده بجانب استمراره ، فصار عندهم بقاء الحب فى الله والتأكيد عليه من الأمور الإلهية ، والمشروعات الربانية [٣] .

(١١) أن أهل الصفة كانوا يوازنون بين الآجل والقابل، وقد رأوا أن الباقى أعلى، لأنه من عند الله جاء، وبين يديه يجرى، ومن رحماته يتم، فاستخلصوا هذه الجوانب حتى صارت بالنسبة لهم، قواعد ثابتة وأمورًا عامة فلما أخذها الصوفية عنهم أضافوا إليها السلوكيات العملية، فنعموا بالأمرين معًا[٤].

(١٢) أن أهل الصفة ربطوا أنفسهم لله ، ورابطوا فى سبيله وثابروا ابتغاء مرضاته فوقع لهم الفلاح مقتدين بقول الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا**

---

(١) ولمزيد من التفاصيل تراجع أفعال الله وأفعال العباد ، فى المؤلفات الإسلامية، وهى كثيرة ومتعددة ، ومنها الأربعين فى أصول الدين للرازى والاقتصاد فى الاعتقاد للإمام الغزالى ، وغاية المراد من عبارات الإمام ، والتمهيد للنسفى، والمواقف والمقاصد .

(٢) وبالتالى تعددت المقامات والأحوال بتعدد الناظرين إليها، على أساس الأدلة التى وفقوا إليها، وهو شأن المسلم القائم على حدود الله لا يبرحها .

(٣) راجع الدكتور / محمد مصطفى حلمى ، ابن الفارض والحب الإلهى حيث عرض هذه الجوانب ، وبين أثر الصوفية المسلمين فى الأخلاق والقيم الإنسانية ط (دار المعارف) .

(٤) وبالتالى تظهر العلاقة القوية المتينة بين الصوفية ، وبين أهل الصفة ، كما تبدوا الفوارق الواسعة بين الصوفية وأدعياء التصوف .

وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وقد أخذ الصوفية هذه المفاهيم، وقاموا عليها أحسن ما يكون ، ثم توسعوا في استخدامها ، فصارت لهم بها اتجاهات متزايدة وإنتماءات ممتدة ، شملت الرباط الجسدى والقلبى والنفسى والمالى .

(١٣) أن أهل الصفة كما كان فيهم لين مشروع من قبل الله تعالى فوق ما تستلزمه التخلية والتحلية ، كما : أن هذا اللين قد صنع فيهم أو أنهم طبعوا عليه ، لقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد حذا الصوفية حذوهم فألفوا قلوبهم ، وأمسكوا أزمة جوارحهم ، بل انطلقوا إلى الجوانب الإيمانية يعبرون من حاجز إلى حاجز حتى صار سميرهم ذكر الله ، وأنيسهم التعلق بالله وأمانيهم القرب من الله بحيث يتحقق فيهم قول الله عز وجل : " عبدى أطعنى تكن عبدًا ربانيا تقول للشيء كن فيكون " (٣) .

(١٤) أن أهل الصفة كانوا من أولياء الله ، الذين قال الله فيهم وأمثالهم: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ* لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤).

والصوفية قد فهموا هذا المعنى فى الولاية وهم يعلمون أنها لا تجيء بالاكتساب وإنما من منح الملك العليم الوهاب وبالتالى أتقنوا العبادة وأخلصوا النية وأحسنوا الأخلاق ، فظفر بعضهم بالمنح الإلهية ، وفازوا بالمراتب الربانية ، التى منحت من عنده جل علاه .

وبالتالى تعددت معهم الكرامات ، وتكاثرت فيهم الفراسات ، وتنوعت على أيديهم أوجه المعونات ، ولم يتركهم الله فى مغوثه من المغوثات ، فصار كبيرهم كصغيرهم الكل عند الله سواء ، وكلٌ يسعى لرضوان الله جل علاه .

وبعد فإن تكن هذه النتائج قد أوفت بالموضوعات التى عرضتها وحققت الأمانى التى حلقت معها ، واستطاعت التعبير عن الأمنيات التى جالت بخاطرى ، وانعطفت عليها جوانحى ، فذاك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوا الفضل العظيم.

أما أنا فما زلت أردد قول الملك العلام:﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٠٠) .

(٢) سورة المائدة الآية (٥٤) .

(٣) الشيخ محمد عبد العزيز الدهشان شرح الانخفاضات السنية فى الحاديث القدسية ص ١٣٥ ط أولى سنة ١٩٤٧ .

(٤) سورة يونس الآيات (٦٢ – ٦٤) .

ثبت المصادر

وقد رتبتها طبقًا للطريقة العلمية الحديثة وهى: ترتيب القرآن الكريم وعلومه أولاً، ثم السنة النبوية وعلومها ثانيًا، فالمعاجم العربية والموسوعات وأخيرًا المصادر العامة.

وقد راعيت فيها الترتيب الأبجدى على اسم المؤلف مبتدئة بالشهرة بعد تجريده من حرف (أل) إن وجد، ثم اللقب العلمى ، فاسمه وسنة الوفاة إن وجدت ، ثم اسم الكتاب والطبعة إذا أمكننى الوقوف على ذلك .

أولاً : القرآن الكريم وعلومه .

(١) القرآن الكريم .

(٢) تفسير الجلالين . العلامة جلال الدين المحلى ، الشيخ جلال الدين السيوطى، وقد ذيل بكتاب أسباب النزول لجلال الدين السيوطى – تعليق الأستاذ خالد الجمعى الجوجا (مكتبة الملاح دمشق ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م).

(٣) تفسير القرآن العظيم – الإمام إسماعيل بن كثير ت(٧٧٤هـ) (دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ) .

(٤) تفسير القرآن الكريم . د/ عبدالله شحاته . دار غريب القاهرة – ط(٢) ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن الكريم – المشهور بتفسير القرطبى – الإمام أبو عبد الله الأنصارى القرطبى ت(٦٧١هـ) (دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م)

(٦) لطائف الإشارات . الإمام أبو القاسم بن هوازن القشيرى ، المجلد الأول – تحقيق د/ إبراهيم بسيونى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (٣) ٢٠٠٠م) .

(٧) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (لجنة القرآن والسنة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط (١٠) ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م) .

(٨) كلمات القرآن – تفسير وبيان . الشيخ حسنين محمد مخلوف (دار المعارف ط (١٣) ٢٠٠٠م) .

ثانيًا : السنة النبوية وعلومها .

(٩) الأحاديث القدسية . جمع وتحقيق – الشيخ محمد أبو البركات الإسنوى .

(١٠) الإتحافات السنية فى شرح الأحاديث القدسية – العلامة الشيخ/ نصر الدين محمد أبو البركات الدمياطى (مطبعة فؤاد ط (١) ١٣٢٧ هـ) .

(١١) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف – العلامة عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى ت(٦٥٦هـ) تحقيق إبراهيم شمي الدين (دار الكتب العلمية بيوت ١٤١٧هـ) .

(١٢) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير – العلامة جلال الدين

السيوطى (دار الفكر بيروت ط (١) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) .
(١٣) الجامع لمعمر بن راشد - العلامة معمر بن راشد الأزدى ت(١٥١هـ) (المكتب الإسلامى . بيروت ط (٢) ١٤٠٣هـ)
(١٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ج١، ٢ (مكتبة الرفاعى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .
(١٥) سنن أبو داود - الإمام أبو داود سليمان السجستانى (ت ٢٧٥هـ) طبعة دار الحديث القاهرة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
(١٦) سنن الدارمى - الإمام عبد الله بن عبد الرحمن التميمى الدارمى ت(٢٥٥هـ) (دار أحياء السنة النبوية) .
(١٧) سنن البيهقى الكبرى - الإمام أحمد بن الحسين البيهقى ت(٤٥٨هـ) تحقيق محمد بن عبد القادر عطا (دار الباز- مكة المكرمة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
(١٨) شرح الزرقانى - الإمام الزرقانى .
(١٩) صحيح ابن حبان - الإمام محمد بن حبان (ت ٣٥٤هـ) مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان) .
(٢٠) صحيح البخارى - الإمام محمد بن إسماعيل البخارى ت٢٥٦هـ. (دار ابن الجوزى ط (١) ١٤١٣هـ ١٩٩٣م) .
(٢١) صحيح مسلم - الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى (ت٢٦١هـ) (دار إحياء التراث العربى بيروت) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.
(٢٢) كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس - الشيخ إسماعيل بن محمد العجلونى (ت ١١٦٢هـ) تحقيق أحمد القلاش مؤسسة الرسالة ط (٤) بيروت) ١٤٠٥.
(٢٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد الإمام الحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى ت(٨٠٧هـ) (دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربى القاهرة ، بيروت ١٤٠٧هـ) .
(٢٤) مختصر الترغيب والترهيب . الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى ت ٧٥٢هـ (دار الدعوه الإسكندرية) .
(٢٥) المستدرك على الصحيحين - العلامة الحاكم النيسابورى ت٤٠٥هـ (دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٩٩٠م) .
(٢٦) مسند الفردوس - العلامة أبو شجاع الديلمى الهمذانى ت(٥٠٩هـ) تحقيق السعيد بن بسيونى زغلول (دار الكتب العلمية بيروت ط(١) ١٩٨٦م) .
(٢٧) مسند الشهاب - العلامة محمد بن سلامة بن جعفر القطاعى ت(٥٤هـ) تحقيق حمدى بن عبد المجيد (مؤسسة الرسالة بيروت ط (٢) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

(٢٨) المعجم الكبير - الإمام أبو القاسم سليمان الطبرانى ت(٣٦٠هـ) تحقيق حمدى بن عبد المجيد السلفى (مكتبة العلوم والحكم ط (٢) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)
(٢٩) الموطأ للإمام مالك - برواية الإمام محمد بن الحسن (دار القلم دمشق - ط (١) ١٤١٣هـ - ١٩٩١م) .

ثالثا : المعاجم العربية

(٣٠) أساس البلاغة- العلامة الزمخشرى الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٣١) التعريفات - السيد الشريف الجرجانى طبعة مصطفى البابى الحلبى (١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م) تحقيق إبراهيم الإبيارى .
(٣٢) القاموس المحيط - العلامة الفيروز آبادى (دار الجيل بيروت) .
(٣٣) لسان العرب - العلامة جمال الدين بن منظور - دار المعارف .
(٣٤) المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم - الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى (دار الحديث القاهرة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
(٣٥) معجم مقاييس اللغة - العلامة أبى الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥) (دار الجميل ط (١) بيروت لبنان (١٤١١هـ - ١٩٩١م) .
(٣٦) المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية طبعة وزارة التربية والتعليم ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) .
(٣٧) المصباح المنير- العلامة المقرى .

رابعًا : التراجم .

(٣٨) الإصابة فى تمييز الصحابة - شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ) دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، تحقيق وتقديم حسان المقدسى ط ١٩٧٧ مطبعة القاهرة .
(٣٩) تهذيب الأسماء واللغات العلامة أبو زكريا محى‌الدين بن حزم (دار الفكر بيروت لبنان ط (١) ١٩٩٦م) .
(٤٠) صفة الصفوة - الإمام ابن الجوزى ت(٥٩٧هـ) تحقيق أبى على مسلم الحسينى مكتبة الإيمان بالمنصورة .
(٤١) الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار - الإمام الشعرانى (مكتبة الآداب ط (١) ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) .
(٤٢) مشاهير علماء الأنصار العلامة محمد بن حبان أبو حاتم البستى (دار الكتب العلمية بيروت لبنان) .
(٤٣) المعارف - أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق ثروت عكاشة (الهيئة المصرية العامة ط (٦) ١٩٩٢م) .
(٤٤) الموسوعة الصوفية د / عبد المنعم الحفنى (دار الرشاد ط (١) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .

خامسًا : المصادر العامة :

(٤٥) الإبانوسى الشيخ/ محمد الإبانوسى - الصوفية الأوائل (مطبعة التقدم ١٣١٥هـ).

(٤٦) أبو خشب إبراهيم على أبو خشب - يا رسول الله (الهيئة المصرية العامة للكتاب ط(٢) ١٩٩١م).

(٤٧) أبوزنيمة الدكتور حسن عطوة أبو زنيمة. مصادر الثروة فى العالم الإسلامى .

(٤٨) الأطرش محمد عبد العظيم عبد الوهاب الأطرش - من ثمرات النخيل (مطبعة فؤاد الأول ١٩٣٤).

(٤٩) أبو فرحة الدكتور / الحسينى أبو فرحة - مأدبة الله دراسات فى علوم القرآن (مطبعة الفاروق الحديثة القاهرة ط (٣) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م) .

(٥٠) إمبابى محمد مصطفى إمبابى - الحركة الفقهية الإسلامية (مطبعة الساعى ١٩٧٣م) .

(٥١) الأموى الشيخ عماد الدين ابن محمد الأمويحياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب بهامش قوت القلوب (المطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣١٨هـ).

(٥٢) الأنصارى الشيخ عماد الدين بن محمد الأموى - حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحجوب بهامش قوت القولب (المطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣١٨ هـ)

(٥٣) أبو اليسر الشيخ سعد الدين محمد أبو اليسر - بين الشريعة والحقيقة - (الدار المصرية ط(١) ١٣١٣هـ)

(٥٤) أبو يوسف القاضى يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف - كتاب الخراج (طبعة دار المعرفة بيروت لبنان) .

(٥٥) الباجورى الشيخ/ إبراهيم الباجورى - حاشيةالباجورى على السمرقندية (طبعةالحلبى ١٣٤٨هـ) .

(٥٦) الباجورى حاشية الباجورى على شرح سلم الوصول (طبعةالحلبى ١٩٣٨

(٥٧) البدرى محمد نصر الدين البدرى - إسلام عمر (دار الاستقام ١٣٣٥هـ) ..

(٥٨) البغدادى العلامة أبو الفرج البغدادى - جواهر الألفاظ - تحقيق الأستاذ / محمد محى الدين عبدالحميد - دار الكتب العلمية ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)

(٥٩) البنهاوى أحمد بن عطية البنهاوى – البيان فى علوم البيان (المطبعة المليجية ١٣٠٧هـ) بعناية الشيخ فرج أمين الكردى .
(٦٠) البوسنى الشيخ منصور محمد البوسنى – الطريق إلى الله (الدار الميمنية ١٩٥١م).
(٦١) التازى الشيخ أمين مصطفى التازى – علوم الحديث – (الدار الفنية ١٩٧١م القاهرة) .
(٦٢) الترمذى الإمام أبو عبد الله الحيكم الترمذى – الأكياس والمغترين – تحقيق د/إبراهيم الجيوشى (١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) .
(٦٣) توتكاريف سرجى توتكاريف – الأديان فى تاريخ شعوب العالم – ترجمة المهندس/ محمد فاضل (طبعة شركة الأهالى بسوريا ١٩٩٨م).
(٦٤) ابن تيمية شيخ الإسلام ابن تيمية – اللمعة فى فضائل يوم الجمعة تحقيق محمد بن عطاء الله النعمانى (طبعة الدار السلفية ١٣٢٥هـ) .
(٦٥) مجموعة الفتاوى المجلد (١١) (طبعة دار الرحمة للنشر والتوزيع بالقاهرة ٩ وطبعةخادم الحرمين الشريفين فهد بن عبدالعزيز) .
(٦٦) الثنيان الشيخ طلعت الثنيان – الصُفَّة وأهلها (طبعة الدار القومية) .
(٦٧) الجوزية الإمام بن قيم الجوزية – أعلام الموقعين – المجلد الأول تحقيق/ محى الدين عبد الحميد (مكتبة مصر ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) .
(٦٨) الجوزى الصاحب محى الدين ابن الجوزى الحنبلى – الإيضاح لقوانين الاصطلاح فى الجدل والمناظرة . تحقيق محمود بن محمد السيد الدغيم (مدبولى ط(١) ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م) .
(٦٩) ابن حزم الإمام بن حزم الأندلس – الإحكام (دار التراث) .
(٧٠) الحسنى الشيخ ابن أحمدبن محمد بن عجيبة الحسنى – إيقاظ الهمم (مكتبة ظهران).
(٧١) الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية .
(٧٢) مصطلحات التصوف – من واقع كتاب مراجع التشوق إلى حقائق التصوف – إعداد وتقديم د/ عبد الحميد صالح حدان (مدبولى ط (١) ١٩٩٩م) .
(٧٣) الحسنى الشيخ محمد بن ناصر الحسنى – من أنوار التصوف الإسلامى وبالهامش محمد بن على الشريف الحسينى أهل

العلم هم خاصته (دار المواهب بالخلافة العثمانية ١٣٠٥هـ).
(٧٤) الحكيم الشيخ/ محمد بن على الحكيم – الصوفية الأوائل واتجاهتهم الفكرية (ط (١)١٩٤٥) .
(٧٥) حمدان عبد العاطى حمدان – الفكر الإسلامى رؤية واقعية .
(٧٦) **الخوارزمى** أبو عبد الله محمد الخوارزمى الكاتب – مفاتيح العلوم – تحقيق فان فلوتن (الهيئة العمة لقصور الثقافة بمصر) سلسلة الزخائر العدد ١١٨ لسنة ٢٠٠٤م .
(٧٧) الدرينى الشيخ محمد بن على الدرينى – من رياض الحياة الروحية فى الإسلام (طبعة الوطن ، ١٩٣١م) بعناية الشيخ محمد زكى فرج .
(٧٨) أبو دقيقة الشيخ محمود أبو دقيقة – القول السديد فىعلم التوحيد
(٧٩) **ول ديوارانت** قصة الحضارة المجلد الأول– الشرق الأدنى(دار الجيل – بيروت لبنان).
(٨٠) الزاكى زكى محمد الزاكى – النفس البشرية واتجاهاتها (الدار المحمدية ط (١) ١٣٣٥هـ .
(٨١) الذهبى الدكتور/ محمد حسين الذهبى – التفسير والمفسرون
(٨٢) الزين الدكتور / سميح عاطف الزين – الصوفية فى نظر الإسلام (دار الكتاب المصرى – دار الكتاب اللبنانى ط (٣) ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م) .
(٨٣) الرازكانى الشيخ محمد بن الحسن الرازكانى – أولياء الله هم خاصتهم – (الدار المحمدية ط (١) ١٣٣٦هـ) .
(٨٤) رزق الدكتور/عاصم محمد رزق – خانقاوات الصوفية ط (١) ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م).
(٨٥) رزق الشيخ/عبد العظيم السيد رزق – الشيخ عبد الفتاح عطية الذنكلونى – من هدى النبوة (طبعة دار مراد ١٣١٦هـ) .
(٨٦) الرضوان الشيخ محمد بن على بن الحسينى الرضوان– الصوفية الأوائل والتصوف الحقيقى (دار مربان ١٣٣٥هـ) .
(٨٧) رحمتوف أنس رحمتوف – الديانات الوثنية فى شبه الجزيرة العربية (دار التقدم موسكو ١٩٩١م) .
(٨٨) السامانى الشيخ مختار بن نصار السامانى – ذكر اللسان (دار المنتصر بالله ١٣٣٧هـ) .
(٨٩) سبع د/ توفيق محمد سبع – المجاهدون فى الله (مطبعة الأزهر – ١٣٩٠هـ – ١٩٩١م) .
(٩٠) السحار الأستاذ/ عبد الحميد جوده السحار – محمد رسول الله والذين

معه ج(١١) الهجرة دار مصر للطباعة ١٩٧٨م) .
(٩١) السرقسطى العلامة ابن البنى السرقسطى – المباحث الأصلية (طبعة عالم الفكر بالقاهرة) قدم له عبد الرحمن حسن محمود .
(٩٢) السكندرى تاج الدين أبو العباس ابن عطاء الله السكندرى – تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس (طبعة الحلبى الثانية ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م) ومعه أنظومة برء الأمالى فى التوحيد للشيخ الفرغانى .
(٩٣) السلمى أبو عبد الرحمن السلمي النيسابورى – عيوب النفس ومداواتها – تحقيق د/ عبد المنعم خفاجى ، عبد العزيز شرف (دار الشروق ١٤٠١هـ– ١٩٨١م) .
(٩٤) السمرائى الشيخ محمود زين الدين السمرائى – التصوف الإسلامى (الدار القومية ١٣٢٨هـ) .
(٩٥) السهرورردى الشيخ / أبو حفص بن محمد السهروردى عوارف المعارف (الدرا القومية بالقاهرة ١٩٧٣م) .
(٩٦) شاهاور العلامة أبو بكر شاهاور الرازى – منارات السائرين ومقامات الطائرين – تحقيق سعيد عبد الفتاح الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م) .
(٩٧) شحاته عبد الفتاح شحاته – الخلفاء الراشدون _ دار الطباعة الفنية بالقاهرة ١٩٧٢م) .
(٩٨) الشربينى الخطيب الشربينى – فوائد الإقناع – كتاب الطهارة .
(٩٩) الشيبانى الشيخ محمد بن حسن الشيبانى – تراجم الصحابة (دار التقدم ١١٢٣ هـ).
(١٠٠) الشوكانى الإمام الشوكانى – قطر الولى على حديث الولى ، أو ولاية الله والطريق إليها تحقيق د/ إبراهيم هلال إبراهيم (دار الكتب الحديثة ١٩٧٩م) .
(١٠١) الطهطاوى الشيخ عبدالرحيم عنبر الطهطاوى – هداية البارى فى صحيح البخارى – دار الريان للتراث .
(١٠٢) الطويل الشيخ محمد حسن على الطويل – أهل الإسلام الأوائل (المطبعة الأهلية ١٩٢١م) .
(١٠٣) الطويل الشيخ/ نصر الدين بن محد الطويل – التصوف والصوفية (طبعة ١٣٠٨هـ) .
(١٠٤) الطيالسى الشيخ محمد بن على الطيالسى – الصوفية الأوائل (الدار الميمنية ط (١) ١٣١١م) .
(١٠٥) ظهران الشيخ محمد بن علىظهران – أنيس الجليس فى سير

صحابةالرسول ﷺ (دار المعارف الميمنية – الديار العثمانية ١٣٥٨هـ) .
(١٠٦) العجلان الشيخ محمد بن على حسن العجلان لقطة الظمأن (طبعة الدار المصرية القديمة ١٣٣١هـ) .
(١٠٧) عبد الرازق الشيخ محمود عبد العظيم عبد الرزاق – من أنوار السنة المطهرة (الدار القومية القاهرة) .
(١٠٨) عبدالسلام شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام – زبد خلاصة التصوف المسمى حل الرموز – تحقيق د/ طه عبد الرؤوف سعد (مكتبةالعلم والإيمان ١٩٩٥م) .
(١٠٩) العربى الدكتور/ محمد ممدوح العربى – دولة الرسول فى المدينة (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) .
(١١٠) عبدالعظيم الشيخ محمود حسن عبد العظيم – من أخلاق الصوفية (الدرا المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨).
(١١١) عبدالكريم الشيخ محمود عبد الكريم – نظرات فىالتصوف الإسلامى(طبعة الدرا الملكية ١٩٢٢)
(١١٢) الغزالى الإمام أبو حامد الغزالى – إحياء علوم الدين تقديم وتحقيق د / بدوى طبانة (البابىالحلبى) .
(١١٣) إلجام العوام من علم الكلام – ضمن مجموعة القصور العوالى – (مكتبة الجندى) .
(١١٤) الرسالة الوعظية – ضمن مجموعة القصور العوالى – مكتبة الجندة.
(١١٥) الاقتصاد فى الاعتقاد .
(١١٦) روضة الطالبين وعمدة السالكين – ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالى (دار الفكر ط (١) بيروت ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م) .
(١١٧) مشكاة الأنوار – ضمن مجموعة القصور العوالى تحقيق أ/مصطفى أبو العلا (مكتبة الجندى) .
(١١٨) المضنون به على غيرأهله – ضمن مجموعةالقصور العوالى (مكتبة الجندى) .
(١١٩) مكاشفة القلوب (مطبعة الحلبى ط (٢) ١٣٧١هـ – ١٩٥٢).
(١٢٠) منهاج العابدين (دار الكتب العربية الكبرى ١٣٢٧ هـ)..
(١٢١) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى – ضمن مجموعة القصور القصور العوالى – (مكتبةالجندى).
(١٢٢) القشيرى الإمام أبو القاسم القشيرى – الرسالة القشيرية ج ١، ٢ –

تحقيق عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف (حسان بالقاهرة ١٩٦٤م).

(١٢٣) طريق الله تعالى – تحقيق د/ إبراهيم بسيونى ، محمد غانم (ط ١٩٨٥م) .

(١٢٤) قطب محمد محفوظ قطب – الدعوة الإسلامية فى مكة (دار الأستاذ تركيا ١٩١١م) .

(١٢٥) الكاوندى الشيخ/ نجم الدين حسن الكاوندى – أهل الإيثار (مطبعة التقدم ١٣٣٥هـ) .

(١٢٦) الكلاباذى العلامة / أبى بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى ت(٣٨٠هـ) التعرف لمذهب أهل التصوف – ضبط وتحقيق أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط (١) ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

(١٢٧) المباركفورى الشيخ صفىالرحمن المباركفوى – الرحيق المختوم .

(١٢٨) المساعدى الشيخ على بن الحسن المساعدى – الإسلام والتصوف – قواعد مشتركة (طبعة المطبعةالمصرية القديمة ١٣١١هـ).

(١٢٩) مشهور الدكتورة/ أميره عبد اللطيف مشهور – الاستثمار فى الاقتصاد – تقديم الشيخ محمد الغزالى (مدبولى ١٩٩٠).

(١٣٠) مصطفى الدكتور/ فاروق أحمد مصطفى – البناء الاجتماعى للطريقة الشاذلية (الهيئةالمصريةالعامة للكتاب ١٩٨٠م) .

(١٣١) المهدى الشيخ محمد عبدالعظيم المهدى – فضل الصحبة والصحابة (طبعة المعلم فرج محمد نجم – مطبعة مصر المحمية ١٣٣٤هـ).

(١٣٢) موسى الدكتور محمد يوسف موسى – القرآن والفلسفة (دار المعارف ط(٤) ١٩٨٢م).

(١٣٣) ناصر حكمة الله ناصر – طرائق التفكير فى الماضى والحاضر .

(١٣٤) النبهانى الإمام إسماعيل النبهانى – جامع كرامات الأولياء (المطبعة الأميرية ١٣٢٣هـ) .

(١٣٥) النجدى الشيخ محمد بن على النجدى – مآثر الصديق (الدرا الرحمانية ١٣٣١هـ) .

(١٣٦) الصوفية الأوائل (دار المعتصم ط(٢) ١٣٢٣هـ).

(١٣٧) النجومى المستشار محمد عزب النجومى – الشافعى وفقه (دار المهندم – المغرب ط (١) ١٩٦٣م) .

(١٣٨) النشار الدكتور/ على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى ج٣ (دار المعارف ط(٨) .

(١٣٩) نصار محمد حسن نصار – الصوفية ودورهم فى التربية (الطبعة الأولى ١٣٣٥هـ) .

(١٤٠) الهجويدى كشف المحجوب ترجمة محمود أحمد ماضى أبو العزائم – مراجعة إسماعيل ماضى أبو العزائم – تقديم إبراهيم الدسوقى شتى (دار التراث العربى القاهرة ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م) .

(١٤١) اليافعى أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعى ت (٧٦٨هـ) نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية . الملقب (كفاية المعتقد ونكاية المنتقد) تحقيق وتصحيح أ/ إبراهيم عطوه عوض(البابى الحلبى ط(١) ١٣٨١هـ ١٩٦١م) .

(١٤٢) روض الرياحين فى حكايات الصالحين – الملقب – نزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر فى حكايات الصالحين والأولياء والأكابر (مكتبة ظهران – القاهرة ١٩٩٨م) .